

المكتبة الناريخية
بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

٤

طائفة الاسماعيلية
تاريخها . نظرها . عقائدها

للدكتور محمد كامل حسين

أستاذ الأدب المصري بكلية الآداب بجامعة القاهرة

مكتبة الشرق والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مدني باشا - القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٥٩

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

فهرس الكتاب

صفحة

تقديم الكتاب بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ...	٨
مقدمة	١
الفصل الأول : دور الستر	٣
» الثاني : دور الظهور	٢٩
» الثالث : الإسماعيلية الغربية	٤٦
» الرابع : الإسماعيلية الشرقية في فارس	٦٢
» الخامس : الإسماعيلية النزارية في الشام	٩١
» السادس : أغا خان	١١٠
» السابع : أسرار نظام الإسماعيلية	١٣٠
» الثامن : عقائد الإسماعيلية	١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

لا أكاد أعرف أستاذاً تعشق موضوع تخصصه ، فأخلص له ، وبذل له من ذات نفسه وقلبه وعقله ، وفرغ له حتى لا يكاد يريم عنه ، كما فعل زميلي الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين .
قد تخصص الصديق الفاضل في الدراسات الإسماعيلية منذ سنوات بعيدة ، وحشد لها جهوده ، ووقف عليها نشاطه ، حتى أصبح — بحق — من روادها الأول ، لا بين الناطقين بالضاد فحسب ، وإنما بين سائر علمائها في شتى أقطار الأرض .

وقد استطاع الدكتور كامل حسين بوسائل مختلفة — وله في ذلك قصص شائقة — استطاع أن يجمع لنفسه طائفة كبيرة من الكتب والرسائل المخطوطة في تاريخ الفرقة الإسماعيلية وعقائدها ، قل — بل ندر — أن توافرت لتعبه من الباحثين في هذا الحقل . ولا غرو فقد عرف عن الإسماعيليين حرصهم الشديد على تراثهم

الفكرى حتى ليضنوا به أن يرى النور . فمكف على قراءتها وفك
 تلاسمها حتى استوى له تاريخ الإسماعيلية وعقائدهم ، وقد نشر
 من تلك المخطوطات طائفة كبيرة ، ثم هو لا يزال يعمل في تحقيق
 ما بقي منها تمهيداً لنشره . وحسبك أن تطلع على قائمة الكتب
 التي نشرها الدكتور محمد كامل حسين في الأدب الإسماعيلي
 والمقائد الإسماعيلية والدعوة والدعاة لتقدر الجهد العنيف الذي
 بذله — في دأب متصل — لخدمة هذا الجانب الهام من التراث
 الفكرى والدينى والتاريخى لتلك الفرقة الإسلامية الشهيرة .

على أن الدكتور كامل حسين لم يقنع بالدراسة النظرية لهذا
 التراث في مصادره الأولى ، وإنما أضاف إلى ذلك خبرات عملية
 نتيجة لاتصاله الشخصى ببعض كبار الإسماعيليين ، وفي مقدمتهم
 زعيمهم « أغا خان » الراحل . وقد زار الدكتور أكثر مراكز
 الإسماعيلية في الشام والعراق والهند وغيرها ، ودرس حياتهم
 عن كثب ، وناقشهم آراءهم ، ووقف منهم على تفسير بعض
 ما غمض من معتقداتهم .

ومن الحق أن نذكر أن تمشق الدكتور محمد كامل حسين
 لموضوع الإسماعيلية وطول صحبته له لم يصرفاه عما ينبغي أن يتوافر
 للعالم من نزاهة الحكم والبعد عن الهوى والتزام القصد
 في أحكامه .

(ز)

والواقع أن الدكتور كامل حسين قد التمس دائماً وجه الحق
في كل ما كتب سواء رضى عنه الإسماعيلية أو سخطوا عليه .
والكتاب الذى تقدمه له اليوم عن « طائفة الإسماعيلية :
تاريخها ونظمها وعقائدها » خير مثل لذلك . والكتاب — على
صفره — ثمرة لدراسات مستفيضة وخبرات شخصية للمؤلف .
ولا شك أن القارئ سيقدر أن وراء كل موضوع من الموضوعات
التي ينتظمها هذا الكتاب حشد كبير من الاطلاع والدراسة
لا يقوى عليه إلا من ملك ناصية بحثه ، حتى ليصبح — بين يديه —
أمراً سهلاً مُيسراً ، مجلّواً للناس في تلك الصورة الرائقة الواضحة .
نرجو الله أن ينفع به . وعلى الله قصد السبيل .

أحمد عزت عبد الكريم

١٤ يناير ١٩٥٩



مقدمة

قام الاسماعيلية بدور خطير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلدان مختلفة من العالم الإسلامي ولهم أثر في التاريخ لا نستطيع أن ننكره ، ولا أكاد أعرف فرقة من الفرق الإسلامية كان لها ما للاسماعيلية من تاريخ طويل حافل بالحوادث والتيارات ، فلا غرو أن نسمع باهتمام العلماء بهذه الفرقة منذ ظهورها على مسرح الحياة السياسية . ووضعوا عنها من المؤلفات قديماً وحديثاً ما لم يوضع مثله عن فرقة أخرى ، فالذين خالفوا الاسماعيلية طعنوا رجالها وفندوا آراءهم الدينية ، وقام علماء الاسماعيلية بدفع الاتهامات التي انصبت عليهم وردوا على مخالفهم ، فكان الجدل بين الاسماعيلية وأعدائهم سبباً في ثروة علمية شغلت الفكر زمناً طويلاً ، بل لا تزال الكتب تؤلف عن الاسماعيلية إلى الآن .

وأسس الاسماعيلية أكثر من دولة لهم ، وفي بقاع مختلفة من البلدان الإسلامية . وكانت لهم دولة في المغرب امتدت إلى صقلية وجنوب إيطاليا ، وكانت لهم دولة في مصر ، وأخرى في اليمن ، وأسسوا دولة في بلاد فارس ، وكانت لهم قلاعهم وحصونهم في الشام ، ومن الطبيعي أن يكون لهذه الدول أثر في مجرى الحوادث في العصور الوسطى ، حتى خشي بأس الاسماعيلية كل الدول

المجاورة لهم بل والبيعة عنهم ، وكانت بينهم حروب عنيفة قاسية امتدت وتشعبت . كما كان للاسماعيلية مذهب ديني خاص دانوا الله به وعملوا على نشره في العالم بالدعاية المنظمة تنظيماً دقيقاً حتى استجاب لهم جمهور كبير من الناس . وهذا الكتاب محاولة مبسطة للتعريف بتاريخ هذه الفرقة وبأهم الأدوار التي مرت بها الطائفة مع شرح مبسط لنظمها وبعض عقائدها .

وأرجو أن أكون قد وفقت في تقريب ذلك كله إلى جمهور المثقفين . والله تعالى ولي التوفيق

محمد طاهر حسين

الجيزة في أول يناير سنة ١٩٥٩

الفصل الأول

دور الستر

طائفة الاسماعيلية فرقة من فرق الشيعة ، أخذت أصولها المذهبية عن الأصول الشيعية التي وجدت قبل ظهور الاسماعيلية ، تلك الأصول التي لم تكن في أول أمرها تختلف عما ذهب إليه غيرهم من المسلمين في شيء ، وكان الخلاف ينحصر في نقطة واحدة ليست من صميم الدين في شيء إنما كان الاختلاف حول الإمامة بغد الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الشيعة جعلوا الإمامة حقاً شرعياً للإمام علي بن أبي طالب ولأبنائه من بعده ، وذهبوا إلى أن هذا الحق الشرعي هو بأمر من الله سبحانه وتعالى ونص منه إلى فیه الكريم ، فقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم في عودته من حجة الوداع نزل بالجحفة « بين مكة والمدينة » عند غدير يعرف بغدير خم في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، وهناك جاءه الوحي بالآية القرآنية السكرية (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) . ويستمر الشيعة في حديثهم عن ذلك فيقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم صدع بأمر ربه وأمر بالصلاة ، حتى إذا

انتهى منها خطب الناس ، وهو آخذ بيد علي بن أبي طالب ،
فكان مما قاله عليه السلام في خطبته : « أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أُولَى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : أَلَسْتُمْ
تَعْلَمُونَ أَنِّي أُولَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ .
قَالَ : مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَآلَاهُ ، وَعَادَ
مَنْ عَادَاهُ ، وَانْصَرَّ مِنْ نَصْرِهِ ، وَاخْذَلَّ مِنْ خِذْلِهِ ، وَأَدْرَ الْحَقَّ
مَعَهُ حَيْثُ دَارَ » . فعندما سمع الصحابة رضوان الله عليهم قول
الرسول الكريم هناؤا علماً بأنه أصبح مولى جميع المسلمين . وفي
مسند أحمد بن حنبل : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان
أول المهتئين لعلي . فالشيعة على خلاف مذاهبهم وتباين أهوائهم
يثبتون هذا الحديث النبوى ، ويعتبرون يوم الغدير عيداً لهم
لا يزالون يحتفلون به إلى يومنا هذا . هذا هو الأساس الأول
لمقيدة الشيعة عامة في ولاية علي بن أبي طالب ، وبذلك رفضوا
الاعتراف بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر وإمامة عثمان بن عفان ،
ومن الطبيعي ألا يعترفوا بالأمويين أو العباسيين أو غيرهم من
الخلفاء . هذا هو الخلاف الأول الذى قام بين الشيعة وجمهور أهل
السنة والجماعة ، وكان هذا الخلاف فى أول الأمر لا يبعدهم فى
قليل أو كثير عن سائر المسلمين . ولكن بمرور الزمن أصبح هذا
الخلاف أصلاً من أصول المقيدة الشيعة ، وفرضاً من فرائض
الدين عندهم وأساس فلسفتهم المذهبية ، وعنه تفرعت مسائل

أخرى وآراء جديدة ، تجمعت على مدى الأيام وتبلورت وكونت
المقيدة الشيعية التي نعرفها الآن .

رأى المتشيعون في أول الأمر أن أمور دينهم يجب أن تؤخذ
عن أعقاب النبي (ص) الذين تسلسلوا من أولاد فاطمة بنت النبي
وزوجها علي بن أبي طالب ، وأن حفدة النبي أحق الناس بأن
يعرفوا حقيقة رسالة جدهم وأن يفهموها حق الفهم وأن يبشروا
بها كما بشر بها جدهم محمد (ص) ، فهم وخدمهم ورثة علم النبي
خصمهم النبي بذلك ليكونوا حجة على المسلمين من بعده ، وذلك
كله بأمر من الله تعالى ، الذي نص على ولاية علي بن أبي طالب
يوم غدير خم في آية النص التي ذكرناها من قبل ، والتي فهمها
الشيعية وأولوها تأويلًا يتفق مع مذهبهم وآرائهم في ولاية علي
وأبنائه من بعده ، على أن يكون الابن الأكبر من أهل بيت
الرسول هو صاحب الحق الشرعي في أن يكون القائد الروحي
للمسلمين ، بل أن يكون في الوقت نفسه حاكم المسلمين . وبمعنى
آخر ، رأوا أن أكبر أفراد الأسرة سنًا هو صاحب السلطان
الديني والسياسي معاً ، لارتباط الدين والسياسة في تلك الأيام
بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأي
حال من الأحوال . فالشيعية على هذا النحو طالبوا بقيام النظام
الثيوقراطي في الإسلام ، هذا النظام الذي كان معروفاً في العصور
القديمة عند كل الدول مثل المصرية والبابلية واليونانية والرومانية

وغيرها من الدول ذات الحضارات القديمة التي كانت قبل الإسلام ،
 ففي حضارات هذه الدول القديمة كان الشعب ينظر إلى الملوك
 نظرة دينية بجانب النظرة الدنيوية ، وكانت الحكومات حكومات
 إلهية ، بمعنى أن الملك كان إلهاً مقدساً ، فله أن يحكم البلاد حكماً
 مطلقاً دون أن يجرؤ أحد أن ينازعه هذا الحكم على أية صورة
 كانت ، مهما كان هذا الملك ظالماً مستبداً أو شريعاً عادلاً أو ماجناً
 خليعاً ، فالحكم له بأمر الآلهة التي عبدها الشعب ، ومن هذه
 الآلهة كان ملكهم . هذا النظام الثيوقراطي كان عند الأمم
 القديمة التي سبقت الإسلام ، ولكن انتقلت هذه الآراء القديمة
 إلى بعض من دان بالإسلام من الشعوب التي عرفت هذه النظم
 الثيوقراطية ، وتعلّبت هذه الآراء القديمة عندهم على الرغم مما
 جاء به الإسلام وما ورد في القرآن الكريم عن النبي (ص) نفسه
 (وما أنا إلا بشر مثلكم) . ولكن تغلّبت الآراء القديمة في
 نفوسهم ، فكان لها أثر أقوى من تغلّط دين الإسلام الجديد .
 وإقراراً للحقيقة نذكر أن آراء الشيعة الثيوقراطية في أول الأمر
 كانت معتدلة جداً بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر عند الشعوب
 القديمة ، فإن الشيعة في أول أمرهم لم يؤلّوها علياً ولا أحد
 أحفاده ، بالرغم مما أسبغوه على الأئمة من مناقب وفضائل تطورت
 إلى حد بعيد بعد القرن الثالث للهجرة .

كان الدين قوام الحياة في العالم القديم والوسيط ، ففي القرون

الثلاثة الأولى للهجرة كان شعور السخط عند المسلمين يزداد على
الحاكين لانصراف بعض الحكام عن المثل الدينية الإسلامية
التي جاء بها القرآن الكريم وفي سنة الرسول عليه السلام ،
وتطلع الناس إلى أن يعود حكم الخلفاء الراشدين « وها هو مالك
ابن أنس وهو من أئمة أهل السنة والجماعة يمدى سخطه وغضبه
على حكم المباسيين ، وكان يتمنى لو عادت أيام الخلفاء الراشدين ،
أو أيام الأمويين وخاصة أيام عمر بن عبد العزيز . فمالك بن أنس مثل
من أمثلة عديدة نستطيع أن نأخذ منها شعور المسلمين « ولا سيما
جماعة العلماء والفقهاء نحو الحاكين . ومن الطبيعي أن هذا الشعور
كان يعبر عن شعور غيرهم من المسلمين « أما جماعة الشيعة في هذه
العصور فكان شعورهم نحو الحاكين هو نفس شعور غيرهم من
المسلمين ، ولكنهم كانوا يتطلعون إلى أن يعم العدل بين الناس
على يد زعيم من أهل بيت رسول الله ، ولذلك كانوا يلتفون حول
أكبر فرد سناً من أهل البيت ليأخذوا عنه علوم الدين ، كما كانوا
ينظرون إليه نظرتهم إلى الرجل الذي يستطيع أن يخلصهم مما هم
فيه من ظلم واضطهاد ، ويرجون اليوم الذي يتولى فيه هذا الرجل
حقه الشرعي من حكم العالم . وربما دبر هؤلاء الشيعة حركات
ثورية للتخلص من الحاكم ليتولى رجل من أهل البيت الحكم ،
وكان من الطبيعي أن يوجس الحاكمون في تلك الأوقات خيفة
من أمثال هذه التجمعات حول أهل البيت ، إذ رأوا فيها خطراً

عظيماً يهدد سلطانهم . فلا غرابة إذن أن نرى الحاكمين يأخذون كل حركة من هؤلاء بالعنف والشدة ، بل تتبعوا أهل البيت أنفسهم بالتشريد والتعذيب والسجن والقتل ، مما أدى إلى ازدياد سخط العامة من الشيعة وغيرهم ، كلما مرت السنون وأصبح حلم الشيعة في إقامة حكم عادل على يد أحد أهل البيت يجتذب جمهرة المسلمين المذبذبة اجتذاباً شديداً جداً ، كانوا يريدون إماماً عادلاً من أهل البيت عملاً الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، ومن هنا نستطيع أن ندرك سبب قيام تلك الحركات الثورية العنيفة التي قام بها الشيعة من حين لآخر منذ ثورة الحسين بن علي بن أبي طالب ، كما نستطيع أن ندرك أيضاً سبب انتشار التشيع بين الجماهير الفقيرة المذبذبة الكادحة الذين كانوا يأملون في استقرار نظام تسوده العدالة الاجتماعية برئاسة إمام من أهل البيت .

والكن واجه التشيعون عدة مشاكل ، غير ما كانوا يلاقونه من اضطهاد الأمويين والعباسيين . فقد تكاثر عدد أفراد أهل بيت الرسول بمرور السنين ، وتفرقت الأسرة في بلاد مختلفة ، الأمر الذي أدى إلى أن أصبح من الصعب معرفة أكبر أفراد الأسرة سنّاً ، وهو الشخص الذي له الحق الشرعي في تولي أمر الشيعة حسب عقائدهم الأولى . وكان لزاماً إذن أن تتطور فكرة اختيار أكبر الأفراد سنّاً إلى اختيار أبرزهم في الحياة العامة ، ثم تطورت هذه الفكرة مرة أخرى إلى اختيار المعهم شأنًا من أبناء

الحسين بن علي ، ولا سيما بعد أن ظهر في فرع الحسين بن علي أعظم أهل البيت موهبة في العلم والدين : وهو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، المتوفى حوالي سنة ١٤٧ هـ ■ الذي التف حوله عدد كبير من الشيعة ، حتى اعتبر في نظر الشيعة الإمامية أنه المؤسس الحقيقي للمدرسة الشيعية الدينية وواضع أصول العقيدة الشيعية ، ذلك بالرغم من أن المعروف عن جعفر الصادق تاريخياً أنه لم يناد بنفسه إماماً للشيعة ، ولم يقم بثورة يطالب فيها بالحكم ، ولكنه بفضل شخصيته الفذة ومواهبه المتعددة وشدة ورعه وتدينه استطاع أن يمد جماعة الشيعة الذين التفوا حوله بما كانوا في أمس الحاجة إليه من وجود شخص من أهل البيت يجتمعون إليه ويأخذون العلم عنه . ومما لا شك فيه أن أبناء جعفر الصادق وحفدته الذين جاءوا بعده لم يستطيعوا أن يبلغوا ما بلغه جعفر الصادق في نفوس الشيعة ■ ولم يرث أحدهم صفاته العالية ، بل عاشوا على تراثه الروحي الذي تركه في نفوس الناس ، ولهذا ترى الشيعة الإمامية في العراق وإيران والشام الآن يطلقون على أنفسهم أصحاب المذهب الجعفري ، أي أنهم أتباع جعفر الصادق . وجد إذن شخص عظيم من أهل البيت ارتاح له الناس وتجمعوا حوله للأخذ عنه .

ويجب أن نذكر هنا أن عدداً كبيراً من علماء أهل السنة

والجماعة تملنوا أيضاً على جعفر الصادق : نذكر منهم على سبيل
المثال الإمام مالك بن أنس ، وذلك لما عرف عن الصادق من
اعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل آراء كل مسلم . السني
منهم والشيعة ، ولكن هذه الآراء التي كان ينادي بها الصادق
وكونت مذهبه الديني دار حولها كتابات كثير من علماء الشيعة
في القرن الرابع للهجرة وما تلاه من قرون ، وتطورت هذه
الآراء بمرور الزمن ، ونسبت إلى الصادق تعاليم وآراء لم يقل بها ،
كما أدخل بعض الشيعة في تعاليمه آراء هي من راث الأمم القديمة
التي خضعت للمسلمين أو التي امتزجت بالمسلمين على نحو ما ،
فكثرت الآراء واختلفت النزعات وتشعبت الأهواء ، وظهر عند
بعض البيئات الشيعية انحراف ومغالة في الآراء الدينية كان من
نتائجها أن اضطر التشيعيون أنفسهم من المحافظين على المذهب
الجعفرى إلى أن يتبرأوا من القائلين بهذه المقالات المتطرفة ومن
آرائهم ، كالذى نراه مثلاً عند أصحاب أبي الخطاب الأسدي الذي
كان من تلاميذ جعفر الصادق ومن ألصق الناس به ، ولكنه
غالى فادعى ألوهية جعفر الصادق نفسه ، مما جعل الصادق يستعيز
بالله من شر فمالته ويتبرأ منه ومن كل من ذهب مذهبه . كثرت
إذن الفرق الشيعية وتعددت آراؤهم واختلفت اختلافاً متبايناً بين
معتدلة وغالية . وجذبت الآراء الشيعية عدداً كبيراً من المسلمين ،
فأصبح للشيعة كيان خاص عرفوا به ، وهم لا يزالون إلى يومنا

هذا في عدة بلاد من العالم على نحو ما سند كره .

ومهما يكن من شيء فقد انقسمت الشيعة الجعفرية بعد وفاة جعفر الصادق حوالى سنة ١٤٧ هـ إلى فرقتين ، وكان انقسامها بسبب الإمامة ، ذلك أن الأثرية العظمى من أتباع المذهب الجعفرى نادوا بإمامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق وسلسلوا الإمامة فى الأكبر سنّاً من عقبه ، إلى أن أشيع بأن الإمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكرى دخل سرداباً فى مدينة سامراء (شمالى بغداد بالعراق) وأنه اختفى فى هذا السرداب خوفاً على نفسه من بطش العباسيين وتنكيلهم بالشيعة عامة وأهل البيت خاصة ، ويقول شيعته إنه لا يزال إلى الآن حياً ، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة على أنه « المهدي المنتظر » الذى سيعمل الدنيا عدلاً ويرد الحق إلى أهله فى الأيام القلائل التى تسبق يوم القيامة ، وأكثر الشيعة فى إيران والعراق وسورية ولبنان الآن يدينون بإمامة الأئمة الاثنى عشر الذين دخل آخرهم السرداب حوالى سنة ٢٦٠ هـ . وسميت هذه الفرقة بالموسوية نسبة إلى موسى الكاظم أو بالإمامية الاثنى عشرية نسبة إلى عدد الأئمة .

أما الفرقة الثانية التى تفرعت عن المذهب الجعفرى فهى فرقة الاسماعيليه الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق فنسبت إليه الفرقة . ومن الطريف أن مؤرخى الاسماعيليه وعلماءهم يروون قصة عن سبب انشقاق أتباع جعفر الصادق إلى هاتين الشعبتين ،

فقال بعضهم إن جعفر الصادق نص على أن يتولى إسماعيل الإمامة من بعده ولكن إسماعيل توفي في حياة أبيه ، وبذلك انتقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب . ولا تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب فقط ، أما الأئمة بعد الحسن والحسين فلا بد أن تنتقل من أب إلى ابن ، وأولوا الآية القرآنية الكريمة (وجعلها كلمة باقية في عقبه) بأن معنى الكلمة هي الإمامة . وأنها لا بد أن تكون في الأعقاب دون غيرهم ، وبما أن إسماعيل بن جعفر الصادق كان صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد أن نص أبوه على ذلك ، فلا بد إذن أن تتسلسل الإمامة في ابنه محمد بن إسماعيل . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان محمد بن إسماعيل أكبر سناً من عمه موسى الكاظم ، فبناء على التقليد الشيعي القديم الذي يوجب تسلسل الإمامة في أكبر أهل البيت سناً كان محمد بن إسماعيل إذن أحق من عمه موسى الكاظم بالإمامة . على أن أكثر مؤرخي الاسماعيلية يقولون إن قصة وفاة إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه إنما كانت قصة أراد بها جعفر الصادق التمويه والتعمية على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور الذي كان يطارد أئمة الشيعة . نخاف جعفر الصادق على ابنه وخليفته إسماعيل فادعى موته ، وأتى بشهود كتبوا محضراً بوفاته ، وأرسل ذلك المحضر إلى الخليفة العباسي الذي أظهر سروراً

وارتياحاً لوفاة إسماعيل الذي كان إليه أمر إمامه الشيعة . ثم
 شوهد إسماعيل بعد ذلك في البصرة وفي غيرها من بلاد فارس .
 وعلى ذلك فالإمامة لم تسقط عن إسماعيل بالموت قبل وفاة أبيه
 لأنه مات بعد أبيه . ولملأ لا أغلو إذا قلت إن هذه القصة
 — قصة التبريه بوفاه إسماعيل — هي قصة خيالية وضعها بعض
 أصحاب المناقب من مؤرخي وكتاب الإسماعيلية الذين يكثر من
 مثل هذه القصص في كتاباتهم ليضيفوا على الأئمة الإسماعيلية
 مناقب وفضائل لا يقرها عقل .

على أن مؤرخي الفرقة الشيعية الاثني عشرية وبعض مؤرخي
 أهل السنة والجماعة يذهبون في إسماعيل هذا مذهباً مختلفاً كل
 الاختلاف عما قاله الإسماعيلية . فقد ذهبوا إلى أن إسماعيل بن جعفر
 الصادق لم يكن بالرجل الذي يصلح للإمامة ، فقد كان مدمناً على
 شرب الخمر ولوعاً بالنساء وأنه كان من أصدقاء أبي الخطاب الأسدي
 الفاسق الملحد الذي ادعى ألوهية جعفر الصادق وأنه (أي أبا
 الخطاب) كان رسوله « مما جعل جعفر الصادق يتبرأ منه ولا
 يرضى عن الصلة التي كانت بينه وبين إسماعيل ، وأن جعفر أظهر
 فرحه لموت ابنه إسماعيل لما كان معروفاً عنه من فسق . هكذا
 اضطربت الروايات واختلفت الأقاويل في أمر إسماعيل بن جعفر
 الصادق بحيث أصبحنا لا ندرى حقيقة أمره ، ولا سيما أنه الرجل
 الذي تسب إليه فرقة الإسماعيلية التي قامت بدور هام في تاريخ

العالم الإسلامي منذ ظهورها . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف
في إسماعيل فالتاريخ يجهل جهلاً تاماً كيف بدأت الدعوة لإمامة
إسماعيل فنحن لا نستطيع أن نعرف أول من دعا بإمامته ،
ولا نستطيع أن نحدد تاريخ ظهور دعوته لأول مرة . وإن كنا
نرجح أن بعض أتباع أبي الخطاب الأسدي هم الذين نادوا به ،
وأهم أغروا ابنه محمداً بالدعوة لنفسه بعد أبيه . وثابت من التاريخ
أن محمداً بن إسماعيل بن جعفر الصادق اضطر إلى أن يترك مسقط
رأسه في المدينة المنورة وإلى أن يهاجر إلى خوزستان (جنوب غربي
إيران) ثم تركها إلى بلاد الديلم (جنوب بحر قزوين) ، ولم يسمع
عنه شيء بعد ذلك . ومن يدري ! لعل هجرته هذه كانت بسبب
التفاف الشيعة حول عمه موسى السكاظم من دونه . فشاء أن يجد
لنفسه أتباعاً وأن يقيم لنفسه دعوة في هذه الأقاليم التي هاجر
إليها ، ولعل الذين أغروه بالدعوة لنفسه هم الذين زينوا له فكرة
الهجرة عساه ينجح في تلك البلاد البعيدة عن أعين الخلفاء
العباسيين . وقد تكون هناك أسباب أخرى لا نعرفها أوضحت
إليه بالهجرة . على أننا لم يصلنا شيء عنه ولا عن دعوته ، بل
لم يعرف التاريخ شيئاً اسمه فرقة الإسماعيلية حتى أواخر القرن
الثالث للهجرة . ففي أواخر هذا القرن نسمع عن حركة القرامطة
في البحرين وبلاد الشام ، ونسمع ما يرويه مؤرخو الإسماعيلية
من أن أسرة محمد بن إسماعيل وفدت على بلاد الشام واستقرت

في مدينة « سلمية » (بالقرب من حمص بسورية) في هيثة
التجار ، وأنهم كانوا يخفون شخصيتهم خوفاً على أنفسهم بينما
كانوا يرسلون دعائهم إلى جميع البلاد الإسلامية للتبشير بقرب
ظهور المهدي المنتظر من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق ، وبمعنى
آخر ظهور الإمام صاحب الحق الشرعي من نسل الرسول (ص)
ليتولى قيادة المسلمين . فظهور القرامطة في البحرين والشام كان
إيداناً بظهور الاسماعيلية على مسرح السياسة بصفة إيجابية . بعد
أن ظلت الاسماعيلية مستترة لا يعرف أحد شيئاً عنها زهاء قرن
من الزمان . ولكن مؤرخي الاسماعيلية يحلو لهم دائماً أن
يتحدثوا عن هذه الفترة من تاريخ أئمتهم « وهي الفترة التي تعرف
عندهم (بدور السر) أي الفترة التي اضطر فيها الأئمة إلى الاستتار
خوفاً من بطش أعدائهم العباسيين ، وكل مؤرخ من مؤرخي
الاسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يبدو له ، بحيث جاء
حديثهم مضطرباً أشد الاضطراب مختلفاً أشد الاختلاف ، فهم
مختلفون في عدد أئمة هذه الفترة ، وهم مختلفون أيضاً في أسماء
هؤلاء الأئمة ، جعل بعضهم الأئمة ثلاثة ، وقال بعضهم بل خمسة ،
وقال بعضهم بل سبعة ويكفي أن أنقل هنا ما كتبه أشهر مؤرخي
الاسماعيلية وهو الداعي إدريس في كتابه عيون الأخبار عن هجرة
محمد بن إسماعيل إلى بلاد فارس وانتقال أسرته إلى بلاد الشام
فقد قال بعد أن اشتد الضغط على الإمام السابع محمد بن إسماعيل

ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب خرج من المدينة إلى الكوفة مصحوباً بأخيه علي ، وظل فيها مدة من الزمن مستتراً عن العيون بعيداً عن الأرصاد ، حتى ولد له فيها ولد أحماء عبد الله ، ومن الكوفة سار إلى الري ، واستتر عند أحد دعاة السريين السمي إسحق بن عباس . وكان يشغل منصب حاكم الري من قبل الرشيد العباسي ، وبعد مدة من الزمن قال له إسحق : يا مولاي قد علمت اليوم أنهم بثوا العيون في كل مكان وأني أصبحت أخشى عليك منهم ، فإن رأيت أن تخرج إلى الجبل وتعتصم بقلعة نهاوند عند خادمك الداعي منصور بن حوشب فإن ذلك أنسب ، وعلى كل حال الأمر لك يا مولاي . فعمل بإشارته ، وبعد ذهابه قبض العباسيون على إسحق وعذبوه عذاباً شديداً ، وقيل إنه مات تحت السياط دون أن يدل على مكان الإمام ، ولما لم يعرف هرون الرشيد عن أمر الإمام شيئاً ، أرسل قائده محمدًا الخراساني ومعه جيش كبير من الكرد والآراك للتفتيش عنه ثم القبض عليه ، فلما وصل إلى نهاوند دخل مسجدها ، فرأى الإمام محمدًا بن إسماعيل مستنداً ظهره إلى الحراب وبين يديه رجلان يعلمهما أصول الدين ، فلم يمالك القائد نفسه حينما رأى عظمته وجلال هيئته من أن ينحني أمامه ويقبل يديه ، ثم أشار إليه بضرورة سفره من نهاوند لأن الرشيد يريد أن يقبض عليه إذا ما ظل فيها ، فخرج منها تحت جنح الظلام مستتراً إلى بلدة سابور ،

ومنها إلى فرغانة وبعد ذلك إلى عسكر مكرم . وهناك على مشهد من دعائه نص على إمامة ولده عبد الله ولقبه بأحمد الوفي ، وبعد ذلك بزمان قليل توفي إلى رحمة الله سنة ١٦٩ هـ ، فاستلم الإمامة من بعده ولده عبد الله وازداد في التستر والخفاء ، وخرج سرّاً من عسكر مكرم إلى زمهر ومنها إلى الديلم ، وهناك تزوج بامرأة من الأسرة العلوية يسمى والدها الأمير علي الهمداني ، فرزق منها ولداً أسماه أحمد ولقبه محمد التقي ثم إن دعوتهم انتشرت انتشاراً واسعاً واستجاب لهم خلق كثير العدد في بلاد العرب وفارس . ولكن الضغط اشتد عليه من قبل المأمون العباسي . فاضطر إلى مغادرة الديلم قاصداً مدينة معرة النعمان قرب حلب . فأقام فيها مدة ، ثم أنه غادرها بعد ذلك إلى مدينة سلمية قرب حمص بعد أن ترك أخاه حسيناً يقوم بالنباية عنه ، وأخذ العهد على المستجيبين لدعوته ، وفي سلمية نص على إمامة ولده أحمد بن عبد الله على مشهد من رجال دعوته . وانتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف بسورية ومات فيها ، ودفن بأعلى قمة جبلها بمكان سمي المشهد . وكان ذلك سنة ٢١٢ هـ ، وبعد وفاته استلم شئون الإمامة ولده السمي أحمد بن عبد الله وهو الملقب بمحمد التقي . وهذا الإمام كان كثير التنقل في البلدان يحب التبشير بالدعوة بنفسه . فوضع الوكلاء والدعاة بمرکز دعوته بسلمية ، وسار متغلباً في بلدان الشام . وأخيراً انتقل إلى الري وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء

إلى استنبول (هكذا !!) حيث توفي فيها سنة ٢٢٩ هـ ، وبعد ذلك استلم شئون الدعوة الإمامية ولده وكان يقيم في سلمية وهو المسمى الحسين بن أحمد بن عبد الله الملقب بعبد الله الرضى . وقد توفي في سلمية سنة ٢٦٧ هـ . ودفن في المسجد الكبير الذي كان يصلي فيه .

هذا ما ذكره أكبر مؤرخ عند الاسماعيليين وهو الداعي إدريس عماد الدين بن الحسن التوفى سنة ٨٧٢ هـ في كتابه عيون الأخبار الذي يعد أعظم كتاب في تاريخ الاسماعيليين ، ولكن الظاهر من هذا النص أن المؤرخ خلط كثيراً من أخبار ذكرت في كتب إسماعيلية أخرى ، بأخبار أتى بها من عنده لم تذكر في الكتب الأخرى ، وإن الأسماء التي ذكرها تختلف عن أسماء الأئمة الذين وردوا في كتب الاسماعيليين ، كما أننا نلاحظ عدة أخطاء تاريخية وقع فيها هذا المؤرخ الكبير ، فقد ذكر مثلاً الداعي المنصور بن خوشب على أنه كان صاحب قلعة نهاوند حوالي سنة ١٦٩ هـ ، مع أن ابن خوشب كان من رجال القرن الثالث للهجرة وليس من رجال القرن الثاني للهجرة ، ومسألة دخول الإمام استنبول ووفاته بها تدعو إلى الدهشة ، لأن استنبول في هذه الأيام لم تكن من البلاد الإسلامية ، إنما كانت عاصمة الأمبراطورية البيزنطية التي كانت في حروب مستمرة مع المسلمين إلى غير ذلك من أخطاء وقع فيها المؤرخ شأنه في ذلك شأن كل

مؤرخي الاسماعيلية الذين تركوا لنا كتباً يصعب جداً الاعتماد عليها
لكنة ما فيها من اختلافات وأخطاء تاريخية . ومن المؤسف
أن هذا الاختلاف لم يكن بين مؤرخيهم فحسب ، بل كان أيضاً
بين كبار علماء الدعوة الاسماعيلية على نحو ما سندكره فيما بعد .
وما دام مؤرخو الاسماعيلية أنفسهم لم يستطيعوا أن يعطونا صورة
صحيحة عن أمتهم في الفترة بين سنة ١٤٧ هـ ، وهي سنة وفاة جعفر
الصادق وسنة ٢٩٦ هـ ، وهي سنة ظهور عبيد الله المهدي بالمغرب
لشدة ستر الأئمة ؛ فن الطبيعى أن لا نجد مؤرخاً من مؤرخي العرب
اهتم بهم في هذه الفترة . ومعنى هذا كله أننا لا نستطيع أن ندلى
برأى صحيح عن تاريخ الاسماعيلية في دور الستر ، فهي فترة
غامضة أشد الغموض حتى إن بعض مؤرخي وكتاب الاسماعيلية
تحدثوا عن هذه الفترة رمزاً دون تصريح ، مما يحمل موضوع
الحديث عن دور الستر شاقاً عسيراً على كل باحث في تاريخ
الاسماعيلية ، فإن الشيعة عامة والاسماعيلية بوجه خاص اتخذوا
التقية مذهباً من مذاهبهم ، ويروون عن الإمام جعفر الصادق
أنه قال : التقية ديني ودين آبائي ، ومن لا تقية له فلا دين له .
فكانت هذه التقية سبباً في غموض تاريخهم واختلاف المؤرخين
واضطرابهم فيما كتبوا .

ولعل هذه التقية التي سببت هذا الغموض في دور الستر كانت
سبباً في هذه الحملة الشديدة التي شنّها العباسيون وعلماء أهل السنة

والجامعة وعلماء الشيعة الاثني عشرية حول نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الاسماعيلية التي عرفت في التاريخ باسم الدولة الفاطمية . فبالرغم من كثرة ما كتب في عصرنا الحديث حول نسب الفاطميين ، فإننا نأسف لاضطرارنا إلى القول بأن كل ما كتب لا يوثق به وثوقاً علمياً صحيحاً وستظل هذه القضية التاريخية « نسب الفاطميين » حديثاً يكتب ويعاد دون الوصول إلى الحقيقة . وذلك كله بسبب هذا الستر الشديد الذي فرضه الأئمة والبطانة حول أنفسهم عملاً بمبدأ « التقية » وخوفاً من بطش أعدائهم ، وسيظل الموضوع غامضاً إلى أن تكشف نصوص جديدة يوثق بها تاريخياً . وليس أدل من اضطراب الحديث عن نسب الفاطميين عند المتقدمين أنفسهم من هذا النص الطريف الذي عثر عليه الصديق الزميل الأستاذ الدكتور حسين الهمداني في كتاب « الفرائض وحدود الدين » لجعفر بن منصور ابن حوشب ، وملخص هذا النص أن جعفر الصادق كان له أربعة أبناء هم إسماعيل وموسى ومحمد وعبد الله ، وأن الإمامة كانت لعبد الله الذي اتخذ لنفسه اسم إسماعيل تقية ، وسلسل الإمامة في عبد الله بن جعفر (الذي تسمى بإسماعيل) ثم بعده محمد بن عبد الله ، ثم عبد الله بن محمد ، ثم أحمد بن عبد الله ، ثم محمد بن أحمد ، ثم أوصى محمد بن أحمد إلى ابن أخيه فتسمى سعيد بن الحسين (أو سعيد الخير) . وهكذا نرى هذه الخلفاء الشديدة

التي لا نستطيع أن نستخرج منها الحقيقة .

وهناك مسألة أخرى. نجعلنا في حيرة من أمر الإسماعيلية في هذه الفترة الغامضة من تاريخهم (أى في دور السر : فنحن نعرف أن الإمام جعفر الصادق توفي حوالي سنة ١٤٧ هـ . وأن شيعته انقسموا بعده إلى موسوية وإسماعيلية ، ومع ذلك فلم نسمع شيئاً عن هذه الفرقة الأخيرة - أى الإسماعيلية - إلا بعد دخول آخر إمام من أئمة الفرقة الموسوية وهو الإمام محمد بن الحسن العسكري السرداب حوالي سنة ٢٧٠ هـ ، أى بعد وفاة جعفر الصادق بأكثر من قرن كامل ، فأين كانت طائفة الإسماعيلية طوال هذه المدة ؟ هذا ما لا نستطيع الإجابة عنه لأننا لم نجد ما نستطيع الاعتماد عليه أو الوثوق به في الكتب التاريخية أو كتب الدعوة الإسماعيلية نفسها . ويخيل إلى أن بعض الشيعة من الإثني عشرية صدموا لاختفاء الإمام الثاني عشر في السرداب ولم يكن له أولاد . فتطلعوا إلى الفرع الآخر من أبناء جعفر الصادق التسلسل من محمد بن إسماعيل فقاموا بالاعتراف بإمامتهم والدعوة لهم . بعد أن ظل أبناء محمد بن إسماعيل بعيدين كل البعد عن أى نشاط للدعوة لأنفسهم بالإمامة طوال هذه المدة . هذا ما نرجحه إلى أن نظمنا إلى نصوص تثق بها تفسر لنا هذا الغموض الشديد الذي يحيط بالإسماعيلية قبل سنة ٢٦٠ هـ ، ولا سيما أن كتب التاريخ بين أيدينا لا تشير من قريب ولا من

بميد إلى أى نشاط من فرقة الإسماعيلية قبل هذه السنة (أى سنة ٢٦٠ هـ) .

ولعل أول حركة إسماعيلية ناجحة هى تلك الحركة التى قامت ببلاد اليمن : فإن أحد الدعاة المعروف بالحسين بن حوشب ، الملقب بمنصور اليمن ، استطاع حوالى ٢٦٦ هـ أن يجمع حوله عدداً كبيراً من قبائل اليمن ، وأظهر بينهم الدعوة للإمام الإسماعيلى المنتظر ، وأن يفتح باسمه عدداً من القلاع والحصون باليمن ، فاستطاع بذلك أن يؤسس باسم الإمام الإسماعيلى (المنتظر) أول دولة إسماعيلية فى التاريخ . أما الداغى ابن حوشب الذى أسس هذه الدولة الإسماعيلية فكان أول أمره من الشيعة الاثنى عشرية ، ويقال إنه قابل فى الكوفة أحد الأئمة المستورين ، واستطاع هذا الإمام بعد عدة مقابلات مع ابن حوشب أن يأخذ العهد عليه ، ثم طلب منه أن يرحل للدعوة له فى اليمن على أن لا يصرح باسمه ، ويكتفى بذلك مررتته وهى الإمامة ، وأن يأخذ العهد على كل مستجيب له باسم (الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق) أو باسم (المهدي المنتظر) فشط ابن حوشب مع زميل له هو على ابن الفضل فى هذه الدعوة باليمن ، حتى نجحت هذه الحركة ولذلك لقب بمنصور اليمن . ويظهر أن علياً بن الفضل نافق صاحبه مما أدى إلى أن يحاربه ابن حوشب ، ثم امتد نشاط ابن حوشب فى الدعوة إلى خارج بلاد اليمن ، فكان يرسل الدعاة من قبله فى

مختلف البلاد ، فكان من الدعوة الذين بعث بهم ابن حوشب إلى بلاد المغرب الداعي الحلواني والداعي السفيناني ، غير أن هذين الداعيين توفيا بعد قليل ، فأرسل الداعي أبا عبد الله الشيعي ليستم مبادئ الحلواني والسفيناني في شمال أفريقية من بث الدعوة بين رجال القبائل المغربية باسم المهدي المنتظر ، واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يكتسب تأييد قبيلة كتامة ، إذا بايعه شيوخها على الدفاع عنه وعن إمامه ، وأن ياتعروا بأمره في دينهم وديارهم ، كل ذلك والإمام في ستره ووقيته لم يعرفه إلا من كان شديد القرب منه من كبار رجال الدعوة ، ولم يكن يعرف أحد حقيقة اسمه . وهكذا نجحت أول (١) محاولة لتأسيس دولة إسماعيلية ، وانتشر الدعوة في الأقاليم المختلفة .

وحوالي هذه السنوات التي فيها نجح الدعوة في تأسيس دولة باليمن ، قامت حركة إسماعيلية في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة ، وامتد نشاط هذه الحركة إلى بادية الشام ، وحركة القرامطة الثورية - هذه شغلت الخلافة العباسية عدة سنوات ، وهزم القرامطة جيوش العباسيين في عدة مواقع ، ودخل قرامطة البحرين مكة أثناء موسم الحج واتزعوا الحجر الأسود وحملوه معهم إلى عاصمتهم « هجر » ، غير أن القرامطة بعد أن نجحت دورهم على العباسيين ، تألبوا على الإمام الإسماعيلي (١) قلت إنها نجحت قبل ذلك في اليمن .

في سلمية ، تغفلوا طاعته وجعلوا الدعوة لزعمائهم دون أئمة
 الاسماعيلية ، بل شاءوا القضاء على أئمة الاسماعيلية فهجموا على
 سلمية ، واقتحموا دور الأئمة وسلبوا كثيراً من أموالهم وقتلوا
 بعض أفراد الأسرة . وكان الإمام الإسماعيلي إذ ذاك هو عبید الله
 المهدي الذي جاءت إليه الأنبياء بنوایا القرامطة فهرب مع بعض
 أفراد أسرته من سلمية إلى الرملة ، وعلم القرامطة بفراره فتبعوه
 إلى الرملة يريدون قتله ومن معه وسلب أمواله ومتاعه ، فاضطر
 المهدي إلى الفرار مرة أخرى إلى القسطنطينية . حيث أقام
 عدة أسابيع رحل بعدها إلى شمال أفريقية ، وهناك أظهر نفسه
 وخرج من ستره وأعلن إمامته ودعوته بعد أن كانت في ستر
 وخفاء ، ويظهر أن حركة القرامطة ضده نهت العباسيين إليه ،
 فقد جهد العباسيون لمعرفة هذا الرجل الذي كان يدعو له القرامطة
 والذي دعا له ابن حوشب باليمن والحلواني والسفياني بالمغرب ،
 ولكن الستر الذي كان يضربه المهدي ومن سبقه من الأئمة حول
 أنفسهم جعل من الصعب على العباسيين أن يعرفوه . فلولاً حركة
 القرامطة في الشام ضد المهدي لما عرف العباسيون عنه شيئاً . ولهذا
 طارده العباسيون عند فراره من سورية . وأرسلوا إلى الولاة بصفته
 حتى يقبضوا عليه ، وكاد يقبض عليه في مصر لولا أن حذره بعض
 النعاة ، فتركها ورجال الدولة العباسية يجدون في طلبه والبحث
 عنه . إلى أن بلغ المهدي مدينة سجلماسة بالمغرب فقبض عليه

بنو الأغلب أصحاب القيروان عاصمة إفريقية (تونس) وسجن المهدي
ومن كان معه من أفراد أسرته ، ووصل نيا سجنه إلى أبي عبد الله
الشيبي داعيته في المغرب والذي نجح في دعوة قبيلة كتامة إليه .
فقلم أبو عبد الله الشيبي بجمع من قبيلة كتامة لإنقاذ المهدي .
واستطاعت جموعه أن تهزم جيوش بني الأغلب ، وأن يخرج
المهدي ومن كان معه من السجن ، وأركب الإمام دابة قادها
وهو ينادي في جوع كتامة : « هذا إمامكم ، هذا إمام الحق ،
هذا هو المهدي » .

وبذلك دخل تاريخ الاسماعيلية في دور جديد . عرفه مؤرخون
وعلماءهم بأنه « دور الظهور » أي أن أئمة الاسماعيلية أظهروا
أنفسهم بعد أن كانوا مستترين ، وجأهروا بدعوتهم وبارأئهم
الذهبية بعد أن كانوا يدعون بها في الخفاء ، وكان الإمام في دور
الستر يخفي شخصيته إلا عن كبار دعاته ، بل إمامانا في الخفاء كان
يسمى الدعاة باسمه ، ويلقبهم بلقبه حتى لا يعرف أحد من هو صاحب
هذا الاسم أو ذلك اللقب ، وكان يعمل في التجارة في مدينة سلمية
ولا يبرحها . بينما كان دعاته متبشرين بين الناس يبشرون بقرب ظهور
المهدي صاحب الحق الشرعي في الإمامة دون أن يشيروا إلى اسمه
أو إلى مكان إقامته . ويقال إن هذا التستر هو السبب الأول في
خروج القرامطة عن طاعته . فإنهم استطاعوا أن يعرفوا اسم الإمام
وقابلهم الرجل صاحب هذا الاسم وبارك حركتهم . ولما عادوا

إليه جهة أخرى وجدوا شخصاً آخر يحمل نفس الاسم وأشار
إليه من حوله بأنه هو الإمام ، فشك زعماء القرامطة في الإمام وفي
الدعوة نفسها ، وجاروا الإمام ودعوا إلى أنفسهم . وهذا ما حدث
أيضاً للداعي أبي عبد الله الشيعي الذي مكن للاسماعيلية بين قبيلة
كتامة ، فإنه قبل سفره إلى بلاد المغرب زار الإمام بسلمية ، فقابله
شخص على أنه الإمام ، ولكن بعد ظهور المهدي بالمغرب رأى
أبو عبد الله الشيعي أن المهدي ليس هو الإمام الذي قابله بسلمية ،
وتطرق الشك في نفسه إلى درجة أن أفضى بذلك إلى أخيه
أبي العباس وبعض رؤساء كتامة ، وكادت تحدث ثورة لو لم يبادر
المهدي بقتل أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وأن يتخذ
الثورة في سرعة عجيبة على نحو ما سند كره فيما بعد . وهذا الستر
نفسه هو السبب الأول في شك كثير من المؤرخين في نسب أئمة
الدولة الاسماعيلية الكبرى (الدولة الفاطمية) وفي شخصيتهم ،
وكان سكوت مؤرخي وكتاب الاسماعيلية في دور الظهور الأول
عن ذكر أئمة دور الستر من العوامل التي أعطت أعداءهم سلاحاً
مضيقاً يشهرونه ضدهم وهو الظن في نسبهم ، والقول بأنهم أعداء
النسب ، حتى قيل إن هذا الإمام الإسماعيلي الذي ظهر ببلاد
المغرب (عبيد الله المهدي) هو ابن رجل يهودي كان حداثاً
يسلمية ، وترملت أمه ، فتزوجها أحد الأشراف العلويين ورعى هذا
الغلام ، فلما كبر ادعى لنفسه نعتاً علوياً ، ودعا الناس إليه ، وقيل

كذلك إن عبيد الله المهدي من نسل عبد الله القداح الذي كان مولى
 جعفر الصادق ، وكان يقوم عنده على حفظ أواني المنزل ، وقد سأل
 بعض الأئمة الميزلدين الله عن نسبته إلى القداح فقال : نعم هو قاذح
 زائد الفكر ! ولم يصف الميز على ذلك شيئاً ، كثيراً ما تهكم
 المصريون بالفاطميين ونسب أئمتهم ، فمن ذلك أن الإمام الإسماعيلي
 الميز بن الميزلدين الله صعد المنبر في أول ولايته على مصر ، فوجد
 رقعة كتب عليها :

إنا سمعنا نسباً منكراً	يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقاً	فذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن تُرد تحقيق ما قلته	فانسب لنا نفسك كالطامع
أو فدع الأنساب مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم	يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم يتبس ببنت شفه . ولا ننسى أيضاً ما يرويه
 المصريون عن « سيف الميز وذهبه » كلما تحدثوا عن نسب الأئمة
 الإسماعيلية . إذ ذهب المصريون إلى أن الميزلدين الله عندما انتقل
 إلى عاصمته القاهرة لأول مرة ، دخل عليه أشراف أهل مصر
 ووجهاؤها وعلمائها ، وسألوه عن نسبه وحسبه ، فحرد سيفه
 وقال : هذا نسي ، ثم نثر عليهم قطع الذهب وقال : هذا حسبي .
 فهكم المصريين وسخرتهم بالأئمة على هذا النحو دليل على شك
 المصريين في نسبهم . والمعروف عن المصريين قوة الوعي ودقة

الحس والتذكاء الذي يستطيع المصري به أن يدرك الأمور في سرعة وأن يعبر عما لا يروقه بالفكاهة تلو الفكاهة ، وسنرى كيف قامى الفاطميون من نكات المصريين اللاذعة العميقة المعنى . إذن كان الستر من أكبر العوامل في شك الناس في نسب الاسماعيليه ، ومع ذلك كله لم يذكر عالم من علماء الاسماعيليه في هذه السنوات الأولى لظهور أئمتهم شيئاً عن نسبهم أو عن أئمتهم في دور الستر واكتفى الجميع بالقول بنسبهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أخذ فيه أعداؤهم يرمونهم بكل موبقة ، وإذا تحدث المؤرخون عن أسماء أئمتهم في دور الستر اختلفت رواياتهم واضطربت أقوالهم ، وذهب كل مؤرخ مذهباً يختلف عن الآخرين ، على أن أكثر المؤرخين يذكرون تسلسل الأئمة على هذا النحو : الحسن بن علي بن أبي طالب « الحسين ابن علي بن أبي طالب ، علي زين العابدين بن الحسين « محمد الباقر ابن علي زين العابدين « جعفر الصادق بن محمد الباقر ، إسماعيل ابن جعفر الصادق ، محمد بن إسماعيل ، عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، أحمد بن عبد الله ، الحسين بن أحمد وهو آخر أئمة دور الستر . وقد ذكرنا أن الخلاف شديد حول هذه الأسماء ، ولكن هذه هي أسماء الأئمة في أشهر الأقوال .

الفصل الثاني

دور الظهور

يقول مؤرخو الاسماعيلية إن الإمام عبيد الله المهدي عند ما جاءته الأنباء بمؤامرة القرامطة ضده ، وعزمهم على قتله هو وأفراد أسرته وسلب كل أموالهم ، فكر طويلاً قبل هروبه من سلمية إلى أين يقصد ، لقد استقر رأيه على القرار من القرامطة لأنه لا يستطيع أن يقاوم جموعهم ، فلم يكن عنده جيش يلاقي به القرامطة ، فشكل الذين كانوا حوله هم عدة أفراد من الدعاة الذين كانوا يأخذون عنه علوم أهل البيت ونظام نشر الدعوة ، فلم يكونوا من رجال الحرب ، وكان معه أهل بيته وهؤلاء كانوا تجاراً ولم يشتركوا في حرب مع أعدائهم بل عاشوا في سلام ودعة طوال حياتهم ، لهذا كله لم يكن أمام عبيد الله المهدي إلا أن ينجو هو وأفراد أسرته بحشاشة نفوسهم قبل أن يباغتهم القرامطة الذين دوخوا جيوش العباسيين وتغلبوا عليهم في عدة مواقع ، ولكن إلى أين يذهب المهدي ؟ استشار في ذلك بعض المقربين إليه من الدعاة والأقارب ، كان أمله أن يهرب إلى اليمن حيث استطاع داعيته ابن حوشب أن ينجح نجاحاً ملحوظاً في نشر الدعوة الاسماعيلية وفي امتلاك

بعض القلائع والحصون على نحو ما ذكرناه من قبل ، وكان أمامه أن يرحل إلى بلاد المغرب حيث استطاع داعيته أبو عبد الله الشيبى أن ينجح في نشر الدعوة في قبيلة كتامة ، وأن يأخذ على شيوخ القبيلة العهد والميثاق بنصرة الإمام ، كانت اليمن والمغرب المنطقتين اللتين انتشر فيهما المذهب الاسماعيلي مما يحقق للإمام النفوذ والسلطان ، فكان علي المهدي أن يختار لهجرة أحد البلدين ، وكان المهدي ذكيا موهوبا كما كان سياسيا قديرا شأنه في ذلك شأن كل عظماء التاريخ الذين تمكنوا من تأسيس الدول . أدرك بثاقب رأيه أن اليمن بعيد عن قلب العالم الإسلامي . فمن الصعب أن تصلح اليمن مركزا لنشر الدعوة الاسماعيلية في جميع البلاد حسب ما كان يطمع فيه المهدي ويعمل له . كانت كل الظروف مهيأة للمهدي في اليمن أكثر مما كانت عليه بلاد المغرب ، وكان المهدي يعلم أن هجرته إلى المغرب محفوفة بأخطار جسيمة ، ولكنه كان يتطلع إلى المستقبل أكثر مما يتطلع إلى حاضره ، يحدوه الأمل في النجاح أكثر من تفكيره في الفشل . فدفعه الأمل في النجاح في المستقبل إلى أن يختار المغرب دارا لهجرته من دون اليمن ، فسار إليها ، وقدر له النجاح فاستطاع أن يؤسس سنة ٢٩٧هـ تلك الدولة المتبيدة التي عرفت في التاريخ باسم «الدولة الفاطمية» . وبالرغم من مظاهر نجاحه في تأسيس هذه الدولة فقد تعرضت مواهبه الفذة وقدرته إلى امتحانات عسيرة جدا في سياسته ،

ولاسيما في سيلسته نحو قبائل البربر ، كانت أكثر قبائل البربر
يتبعيون المذهب مالك بن أنس السني ، وكان بعضهم يدين بمذهب
الخوارج ، بينما كانت دعوته المذهبية تختلف عن المذهبين اللذين
انتشرا بين قبائل شمال أفريقيا فكان من الطبيعي أن يتصارع
المذهب الإسماعيلي الجديد مع المذهبين الآخرين ، أضف إلى ذلك
كله أن قبائل البربر مثل جميع القبائل البدوية في كل مكان في
العالم ، كانت لهم عقليتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة ، فربما قبلوا
اليوم رأيا من الآراء وأيدوه بكل ما في وسعهم ، فإذا جاء الغد
تركوا هذا الرأي لسبب تافه أو لغير سبب على الإطلاق ،
فسياسة أمثال هذه القبائل البدوية من أصعب وأحق أنواع
الحكم ولا سيما إذا كان الحاكم يريد فرض مذهب ديني يخالف
ما عليه القبائل وما توارثوه من تقاليد دينية منذ قرون ، وهذه
الضعفوات وجدها المهدي في تأسيسه للدولة الفاطمية الناشئة ،
فبعد أن قامت كتامة وبعض قبائل أخرى بمساعدته وبهرتهم
هذه الانتصارات الفجائية السريعة التي قوض بها دولة الأغالية
في أفريقيا ، رأى عددا من الثورات قامت بها القبائل البربرية
ضده ، حتى إنه اضطر إلى أن يقتل داعيته أبا عبد الله الشيعي وأخاه
أبا العباس الشيعي لأنهما شكيا في شخصيته وعملا على الخروج
عن طاعته وحاولا إثارة الفتنة في قبيلة كتامة نفسها التي ناصرته
المهدي ، فنارت كتامة ضد المهدي ، ولكنه تمكن من إخماد

هذه الثورة وغيرها من الثورات التي قامت ضده ، وعادت ككتابة إلى طاعته صاغرة بحد السيف ، ثم ثارت مدينة أطرابلس سنة ٣٠٠ هـ ، فأسرع إلى قمعها بقتل زعماء الثوار ، وفي سنة ٣١٥ هـ ثار محمد بن خزر الزناتي ولكنه هزم . ولعل أعنف هذه الثورات وأشدها خطراً تلك الثورة التي قادها أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي الذي كاد يقضي على هذه الدولة الناشئة وأن يهزم جيوشها المرة بعد المرة ، كان أبو يزيد على مذهب الخوارج الد أعداء الشيعة فلما صمم على الثورة لم يقيم بها إلا بعد دراسة طويلة ، فأخذ يدعو ثورته سرّاً زهاء ثلاثة عشر سنة حتى تجمع حوله عدد كبير من مؤيديه . وانتهر فرصة وفاة المهدي فجأه بالمصيان ، ونادى بالجهاد . وظل يحارب الدولة ويهزم جيوشها حتى استطاع أن يحاصر ماصمة الفاطميين (المهديّة) التي بناها المهدي بإفريقية (تونس) ، ولما فشل أبو يزيد في الاستيلاء عليها ، بدأ نجمه في الأفول ، إلى أن استطاع الخليفة الثالث من الخلفاء الفاطميين أن يجمع ثورته وأن يقتله سنة ٣٣٥ هـ . فلو قدر النجاح لثورة أبي يزيد هذه لتغير وجه التاريخ ، ولما كان للاستيعالية هذا الشأن في توسيع أرجاء مملكتهم وفي ازدياد عدد أتباعهم حتى إن أملاكم بلغت من الاتساع ما لم تبلغه دولة إسلامية أخرى بعد عصر الفتوحات الكبرى ، فنذ استطاع المهدي تأسيس دولته بالمغرب . وضع لنفسه سياسة الاتجاه نحو بلاد الشرق . وتوسيع رقعة مملكته

في البلاد التي تقع شرق تونس ، وضع المهدي هذه السياسة التي أصبحت سياسة خلفاء الفاطميين من بعده ، وضعوها نصب أعينهم جميعاً وهم لا يزالون في المغرب ، ولما تم لهم امتلاك مصر في عهد العزيز لدين الله رابع خلفائهم تطلعوا إلى فتح البلاد التي تلي مصر شرقاً عملاً بالسياسة التي رسمها لهم المهدي ، ومن هنا نستطيع أن نفهم سبب إلحاح عبيد الله المهدي في فتح مصر ليتخذها مركزاً لتحقيق ما كان يطمح إليه من التوسع إلى الشرق . فقد بحث المهدي إلى مصر ثلاث حملات حربية لمحاولة فتحها وانتزاعها من أيدي الإخشيديين . ولكن بادت هذه الحملات كلها بالفشل ، إذ أسرع العباسيون بإرسال نجدات قوية إلى مصر دحرت جيوش الفاطميين الحرارة ، وردتهم على أعقابهم بعد نجاحهم في الاستيلاء على الإسكندرية وبعض المدن المصرية الغربية . ثم توقفت الحملات الحربية على مصر بسبب ثورات قبائل المغرب ضد الفاطميين ، ولكنهم لم يقلعوا عن التدابير التي تمكن لهم من تحقيق حلمهم الذي يرى إلى التوسع في الاستيلاء على بلاد المشرق فإذا كان هتلر مستشار ألمانيا قد نخر بأنه أوجد نظام الطابور الخامس في البلاد التي أراد الاستيلاء عليها ، وعد عمله هذا تقليداً جديداً في السياسة والحرب . وهلل له أصدقاؤه وخشيته أعداؤه . وإذا كانت روسيا قد نجحت في بعض البلاد بفضل تنظيمات الخلايا الشيوعية ، فإن هذه التنظيمات التي تجري في عصرنا الحديث لا تقاس بشيء

بالنسبة إلى تنظيمات الإسماعيلية في الدعاة ، وكان ذلك منذ أكثر من ألف سنة . وسنتحدث في كتابنا هذا عن التنظيمات الإسماعيلية فقد فطن الإسماعيلية إلى الدعاية وما لها من نتائج وآثار لعلها تكون أقوى من الحملات الحربية ، وقد فشلت حملاتهم الأولى على مصر ، فأرسلوا إلى مصر حملة من الدعاة يبشرون بمقائد الإسماعيلية وفضائل الأئمة وقرب الخلاص من ظلم الحاكمين وجشع الإخشيديين ، ويمدون الناس بمدالة اجتماعية في ظل حكم إمام من نسل رسول الله (ص) .

ويذكر المؤرخون أسماء بعض هؤلاء الدعاة الذين كان لهم شأن في مصر قبل أن تفتح حريباً ، فمنهم الداعي فيروز وكان كبير دعائهم ، ولكنه نافق الأئمة وغدر بالإمام المهدي وترك مصر إلى اليمن حيث اتصل بعل بن الفضل الذي نافق باليمن ، وقام بقيادة حملة الدعاية في مصر أيضاً الداعي أبو علي — وكان صهر فيروز ولكنه ظل على وفائه للمهدي — ثم ابنه محمد أبو الحسين ابن الداعي أبي علي . وقد بلغ هذا الداعي أعلى مراتب الدعوة في عهد الأئمة المهدي والقائم والمنصور بالله والمعز لدين الله ، كذلك نسمع عن الداعي أبي جعفر بن نصر الذي كان له مكانة خاصة في نفوس المصريين ، وكان من جلساء كافور الإخشيد ، وكانت داره بالقسطاط مجمعا للعلماء والعظماء ، ولا شك أنه كان يبيت فيهم آراءه وتعاليمه دون أن يخشى بطش كافور أو عيون الخلفاء العباسيين ، فبفضل جهود

هؤلاء الدعاة ، دخلت التعاليم الإسماعيلية مصر . وقبلها بمض
 المصريين قبل أن تدخلها جيوش العز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ بل
 ذهب المؤرخون إلى أن كثيراً من المصريين من المسلمين والأقباط
 كاتبوا المهدي لغزو مصر وبعضهم كتب يهجوهم وفي ذلك يقول
 أحد الشعراء المصريين يهجو المهدي :

فن أنت يامهدي السفاهة والحنأ

أبين لي فقد حقت على وجهك الريب

فلو كنت من أولاد أحمد لم يغب

عن الناس ما تسمو إليه من النسب

ولو كنت منهم ما انتهكت محارماً

يذبون عنها بالأسنة والشهب

أبجت فروج المحصنات وبعت من

أصبت من الإسلام ييمك للجلب

وكم مصحف حرقه فرماده

مناره مسقى الريح من حيث ماتهب

كفرت بما فيه وبدلت آيه

وقضبت جبل الدين كفراً فما انقضب

وقال آخر في مكاتبة المصريين للمهدي :

وقد حشدوا المصر ودون مصر له خرط القتاد وأى خرط

وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز يجهله حد التخطى
 بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
 وكل كاتبوه وناقضونا وكل فى البلاد له موطن

كان ذلك كله قبل أن يتمكن القائد أبو الحسين جوهر
 الكاتب من أن يفتح مصر بجيوشه . ومهما يكن من شيء فقد
 دخلت جيوش الشيعة الإسماعيلية مصر سنة ٣٥٨ هـ بقيادة جوهر
 الصقلى وأدال من دولة الإخشيديين ، وبني مدينة القاهرة وشيد
 فيها الجامع الأزهر استعداداً لأن تكون هذه المدينة عاصمة ملك
 الفاطميين ومركزاً عاماً لقيادة دعوتهم . حتى يستطيعوا أن يحققوا
 سياستهم فى الاتجاه نحو بلاد الشرق الإسلامى التى كانوا يتطلعون
 إلى الاستيلاء عليها ، وخاصة بغداد عاصمة الخلافة العباسية عدوتهم
 اللدود . وكانت كل الظروف مهيأة لتحقيق حلمهم . فالحالة
 السيئة التى كان عليها خلفاء بنى العباس إذ ذاك كانت من أهم
 الأسباب التى ساعدت على انتشار نفوذ الإسماعيلية فى البلاد
 الإسلامية ، فقد كان خلفاء بنى العباس ألعوبة فى أيدي قوادهم
 من الأتراك منذ استعان بهم المتصم العباسى ثم جاء البويهيون .
 وهم من الديلم وكانوا يطمنون التشيع ويتظاهرون به أحياناً .
 واستولوا على مقاليد الحكم فى فارس والعراق ، فأصبح الخلفاء
 العباسيون لاهول ولا طول معهم سوى الدعاء باسمهم على المنابر ،
 أما السلطة الفعلية وتصرف أمور البلاد فكانت بأيدي البويهيين ،

وبجانب ذلك فقد انقسمت أملاك العباسيين إلى دويلات وإمارات صغيرة وحارب بعضها بعضاً ، وكان أمراء هذه الدويلات لا يبالون في قليل ولا كثير بالخلافة العباسية المريضة التهالكة ، إنما اهتم كل أمير بنفسه وباستقرار الحكم لأبنائه من بعده ، وتوسيع رقعة دولته ولو كان ذلك كله على حساب الخليفة العباسي نفسه ، وكانت الشعوب في هذه الإمارات تتطلع إلى منقذ ينقذهم من الأمراء ، ويعمل على أن يعلأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً .

أى أن هذه الشعوب المذبذبة كانت تتطلع إلى المهدي المنتظر الذي سينشر العدل بين الناس . وهذا هو أول عامل في الدعوة الشيعية عامة استغله دعاة الإسماعيلية المنبثين في كل مجتمع ، فنشروا بين الشعب ، أحاديث كثيرة عن عدل أئمة الإسماعيلية ، وأنهم ما قاموا بتأسيس دولتهم إلا لخير الإنسانية ورفاهية المجتمع ، مما جعل الناس في جميع البلاد الإسلامية ينظرون إلى خلفاء الدولة الفاطمية الفتية نظرتهم إلى أملهم في الخلاص من شقاءهم ، واعتنق كثير منهم المذهب الإسماعيلي لا إعجاباً منهم بالمعقيدة الإسماعيلية ، إنما لأملهم في أن يحكم الأئمة بلادهم فيسود فيها العدل والسلام ، وقويت روح الشيعة الإثني عشرية في العراق وفارس لوجود دولة شيعية تستطيع أن تحميهم وتساعدهم إنه حاق بهم مكروه . كما كان لوجود البويهيين أثر في قوة الشيعة وانتشار آرائهم ، ويقال إن البويهيين أنفسهم هموا بالدعوة للإمام الإسماعيلي

على منابر بغداد لولا أن ظروفًا سياسية خاصة منعتهم من ذلك ،
كل هذه العوامل ساعدت أئمة الإسماعيلية على بسط سلطانهم على
بلاد الشام والعرب واليمن ، كما كانت شمال أفريقيا من المحيط
الأطلسي حتى برزخ السويس وجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا
تدين بطاعتهم وتكون أجزاء من إمبراطوريتهم ، وفي الوقت
نفسه كان لهم أتباع عديدون منتشرون في بلاد فارس والهند ،
وذلك كله بفضل جهود الدعاة الذين بعثوا بهم في كل مجتمع ،
حتى إن الأمير نصر بن أحمد الساماني اعتنق مذهبهم على يد الداعي
النسفي ، والملك أبا كاليجار البويهى ملك فارس اعتنق هذا المذهب
على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله بن موسى ، بل استطاع
الفاطيون أن يستميلوا إليهم أبا الحارث البساسيري قائد القوات
العباسية بالعراق ، فامتلك بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، وخطب
على منابرها باسم صاحب مصر الإمام الإسماعيلي المستنصر بالله ،
وظلت الخطبة له في بغداد لمدة سنة كاملة . انتشر فيها المذهب
الإسماعيلي في العراق انتشاراً سريعاً واستجاب لدعوتهم أمير الحلة
وأمر واسط وأمر الكوفة وأمر بلاد الجزيرة وغيرهم من أمراء
العراق . ولولا هزيمة الإسماعيلية الفاطميين أمام جيوش طغرل
بك السلجوقي . وتهاون الوزراء في مصر لأسباب شخصية
محضة لا كتسح الإسماعيلية جميع البلاد الإسلامية في الشرق
وأخضعوها لسلطانهم حتى جبال هيمالايا ، ولحقوا بذلك سياستهم

التقليدية التي رسمها مؤسس دولتهم عبيد الله المهدي . ولكن ظهور السلاجقة الأتراك وانتصارهم على جيوش الفاطميين حالا بينهم وبين أطعامهم في تحقيق حلمهم ، كما كان لظهور حركة الصليبيين في أوروبا وحشد الجوع الفقيرة لاستخلاص الأراضي المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين ، ثم طمعهم بعد ذلك في الاستيلاء على بعض البلاد الشامية التي كانت في قبضة الدولة الفاطمية ، كان لذلك أثر كبير في إضعاف نفوذ الإسماعيلية في العالم الإسلامي . أضف إلى ذلك ما حل بمصر مركز دولتهم وقلعها النابض من محن ومجاعات وما ترتب على ذلك من ثورات أرت على الحياة الاقتصادية ، بحيث اضطر الإمام الإسماعيلي إلى أن يتقبل إحسان بعض المحسنات التي كانت تبث إليه برغيفين كل يوم ، كما كان يستعير بغلة داعي الدعاة ليركبها وذلك لخلو قصوره من المأكل ومن الدواب ، فطمع بعض الأمراء في الاستقلال بإماراتهم . ومن الطريف حقاً أن تكون بلاد المغرب أول بلاد خلمت طاعة الإمام الإسماعيلي ، وأعادت مذهب أهل الجماعة والسنة ، مع أن بلاد المغرب كما رأينا من قبل كانت البلاد التي نصرت عبيد الله المهدي ، وساعدته في تأسيس دولته وبسط نفوذه . وقد أراد أحد وزراء الفاطميين بمصر أن يعاقب بلاد المغرب على تمردها وخروجها عن طاعة الفاطميين فبعث إليهم بجيش قوامه عرب بني هلال الذين كانوا يعيشون فساداً في البلاد

المصرية ويكثرون القتل والنهب دون خشية السلطان ، فخدم
 الوزير المصري وأرسلهم إلى المغرب . وهناك كانت لهم وقائع
 وحوادث هي الأساس في تلك القصة الشعبية المعروفة « قصة
 أبي زيد الهلالي والزنادي خليفة » التي لا تزال تنشد إلى يومنا هذا .
 كذلك ضعفت هيبة الإمام الإسماعيلي في مصر عاصمة
 إمبراطوريتهم ، وقد ذكرنا من قبل كيف تهكم المصريون بنسبهم منذ
 قدومهم البلاد المصرية بالرغم من وجود عدد من المصريين رحبوا بهم
 واعتنقوا مذهبهم . ولكن ظهرت حركة تأليه الحاكم بأمر الله
 على أيدي دعاة من الفرس وقدوا على مصر يبشرون بمقاتلتهم
 الإلحادية الجريئة ، وقام المصريون يناهضون هذه الآراء تارة
 بالاعتداء على دعاة التأليه حتى قتلوا أحدهم وفر الباقون من مصر خوفاً
 على حياتهم ، وتارة أخرى باستخدام المصريين سلاحهم التقليدي
 وهو التهكم والسخرية وإرسال النكتة بالإمام تلو النكتة الحاكم
 بأمر الله وفكرة تأليهه وبدعائه . فأزمع الحاكم بأمر الله على أن
 ينتقم من المصريين فأحرق مدينة القسطنطينية ، فازداد سخط المصريين
 على الأئمة الإسماعيلية ، وكثر تنذر المصريين بهم ، وطرحوا عقيدة
 الإسماعيلية من نفوسهم ، أو على الأقل كثر شكهم في العقائد
 الإسماعيلية ، كما أن الوزراء انتهزوا فرصة ضعف الأئمة الإسماعيلية
 واعتمادهم على الجنود المرتقة أو على المالك من السودان والأرمن
 والصقالبة فتلاعبوا بالأئمة وبمصالح البلاد ، وكثرت المنازعات

والمشاحنات على تولى منصب الوزارة « فكان كل واحد من هؤلاء المستوزرين يعمل لمصلحته الشخصية دون اهتمام بمصلحة البلاد أو مراعاة للنظام القائم أو للإمام العقيدة التي دأبوا بها إلى درجة أن هؤلاء الوزراء تلاعبوا بالعقيدة نفسها « ولم يبالوا بها ، فكانوا يعينون الإمام الذي يريدونه حتى لو لم يكن له الحق — حسب العقيدة الإسماعيلية — في الإمامة ، فالعقيدة الإسماعيلية توجب تسلسل الإمامة في الأعقاب مع وجوب النص على من يتولى الإمامة من أولاد الإمام « ولكن هذه العقيدة الأساسية التي قام عليها مذهب الإسماعيلية والتي تكونت على أساسها فرقة الإسماعيلية لم يأبه بها الأئمة أنفسهم ، فمن باب أولى أن يتلاعب بها الوزراء «

فقد حدث أن المعز لدين الله الإمام الرابع من أئمة دور الظهور نص على أن يليه ابنه عبد الله « ولكن عبد الله توفي في حياة أبيه فعاد المعز ونص على ابنه العزيز دون أن يقيم وزناً للعقيدة الإسماعيلية ، وحدث كذلك أن الإمام المستنصر بالله نص على أن يتولى الإمامة بعده ابنه نزار « ولكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الأرمني الجنس انتهز فرصة وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ وأعلن إمامة المستعلي بن المستنصر — وكان طفلاً صغيراً — وهو ابن أخت الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وليس بغير أن ينحى الوزير صاحب النص عن حقه ويولى ابن أخته الصغير حتى يتمكن من فرض سلطانه فرضاً تاماً على الإمام وعلى البلاد بأسرها ،

ولم يكتف الوزير بإهمال زرار بن المستنصر صاحب الحق في الإمامة بل تراه يقبض عليه وعلى ابنه ويحبسهما في أحد حصون القاهرة ثم يبنى عليهما حائطاً إلى أن توفيا ، الأمر الذي ترتب عليه أن عدداً كبيراً من الدعاة ومن أتباع المذهب الإسماعيلي أبوا أن يبايعوا المستعلي ، ولم يعترفوا بإقامته ونادوا بإمامة زرار وأبنائه من بعده ، وبذلك انقسمت الفرقة الإسماعيلية إلى فرقتين : فرقة الإسماعيلية الزارية أو الإسماعيلية الشرقية وفرقة الإسماعيلية المستعلية أو الإسماعيلية الغربية ، كما ترتب على ذلك أيضاً أن ازداد ضعف العقيدة الإسماعيلية في نفوس المصريين وازداد تهكمهم بالأئمة والوزراء مما سهل لصلاح الدين يوسف بن أيوب أن يمحوها من مصر على نحو ما سندكره .

انقسمت الإسماعيلية إذن إلى هاتين الفرقتين الزارية والمستعلية سنة ٤٨٧ هـ ، وكان بعض أتباع الدعوة الإسماعيلية قد انشقوا عنها سنة ٤٠٨ هـ وكونوا لأنفسهم مذهباً خاصاً بعيداً كل البعد عن العقائد الإسماعيلية ، فقد ذكرنا أن بعض الدعاة من الفرس وفدوا على مصر ونادوا بالوهمية الحاكم بأمر الله ، وكان على رأس هؤلاء الدعاة حمزة بن أحمد والدرزي وخوتكين ، وقلنا إن المصريين ثاروا ضد هؤلاء الدعاة ثورة عنيفة وقتلوا خوتكين وبعض أتباعه ، فهرب الدرزي وحمزة إلى بلاد الشام حيث استطاعا أن يجداً شيئاً من النجاح في جذب بعض قبائل بني كلب إلى آرائهما ، وأوجدا

فرقة خاصة منشقة عن فرقة الإسماعيلية هي الفرقة التي تعرف الآن بالدروز المقيمين في سورية ولبنان وشمال فلسطين .

فالدروز إذن فرقة كانت من الإسماعيلية ثم اتخذت لنفسها عقائد وآراء خالفت بها العقائد والآراء الإسماعيلية إلى درجة أن دعاة الإسماعيلية أنفسهم اضطروا إلى الرد على دعاة تأليه الحاكم الذين أنشأوا فرقة الدروز ، بل اضطروا أكبر عالم من علماء المذهب الإسماعيلي حينذاك (أى فى سنة ٤٠٨ هـ) ، وهو أحمد حميد الدين الكرمانى إلى أن يترك مقره بالعراق ، وأن يفد إلى مصر ليهدى ثورة دعاة الإسماعيلية فيها ضد فكرة تأليه الحاكم بأمر الله ، وأن يفند آراء دعاة التأليه ، وكتب فى ذلك رسالته المعروفة «بالرسالة الواعظة»^(١) ، يثبت فيها كفر وإلحاد كل من تحدته نفسه بتأليه الحاكم بأمر الله ، ولم يترك أحمد حميد الدين الكرمانى مصر إلا بعد قتل الحاكم بأمر الله . فانشقاق الدرزية عن الإسماعيلية هو أول انقسام حدث فى الطائفة الإسماعيلية ، وكان الانقسام الثانى هو ظهور فرقة النزارية وفرقة المستعلية ، ولكن هناك ملاحظة جديرة بأن نسجلها الآن لما لها من أهمية فى تاريخ الطائفة الإسماعيلية : تلك أن إمام الإسماعيلية منذ ظهور المهدي سنة ٢٩٧ هـ إلى وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ ، كان معترفا به عند

(١) نشرت هذه الرسالة بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة فى المجلد

لرابع عشر ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٥٢ .

كل أتباع المذهب الإسماعيلي . ولكن عقائد الإسماعيلية كانت مختلفة باختلاف البلاد ، فالعقائد لم تكن موحدة ، وكان الدعاة أنفسهم مختلفين في آرائهم ومعتقداتهم ، مما يجعلنا نقول إن المذهب الإسماعيلي لم يكن واحداً في أى وقت من الأوقات . وسنفصل ذلك في حديثنا عن عقائد الإسماعيلية .

أما أمة دور الظهور حتى الانقسام الثانى فهم :

١ — عبيد الله المهدي . صاحب الظهور بالمغرب : استولى على رقادة في ٤ ربيع الثانى سنة ٢٩٧ هـ .

٢ — القائم بأمر الله أبو القاسم محمد : تولى الإمامة في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ .

٣ — المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل : تولى الإمامة في ١٣ شوال سنة ٣٣٤ هـ .

٤ — المعز لدين الله أبو نعيم محمد : تولى الإمامة أول ذى القعدة سنة ٣٤١ هـ ، وفي عهده فتحت مصر في شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وانتقل إليها في رمضان سنة ٣٦٢ هـ وأصبحت قاعدة ملكه .

٥ — العزيز بالله أبو منصور نزار : تولى الإمامة في ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ .

٦ — الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور : تولى الإمامة في ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦ هـ .

٧ - الظاهر أبو الحسن علي : تولى الإمامة في ١٠ ذى الحجة سنة ٤١١ هـ .

٨ - المستنصر بالله أبو تميم معد : تولى الإمامة في ١٥ شعبان سنة ٤٢٧ هـ وتوفى سنة ٤٨٧ هـ . ■

هؤلاء هم الأئمة الذين كانوا قبل انقسام الطائفة ، ولتحدث الآن عن الفرقتين الإسماعيلية القريبة والإسماعيلية الشرقية ، ولن نتحدث عن الدروز لأنهم بعدوا عن الطائفة الإسماعيلية .

الفصل الثالث

الإسماعيلية الغرية

الإسماعيلية الغرية أو الإسماعيلية المستعلية هم الذين اعترفوا بإمامة المستعلي بن المستنصر الذي نادى به خاله الوزير الأفضل بن بدر الجمالي إماماً سنة ٤٨٧ هـ ، وهؤلاء هم إسماعيلية مصر واليمن وبعض بلاد الشام ، وقد ذكرنا أن المستعلي تولى الإمامة وهو صغير السن إذ كان في العشرين من عمره ، فترك شئون الحكم وسياسة الدولة إلى خاله الأفضل ، وعكف على اللهو والمجون ، وفي عهده بدأت الحروب الصليبية ، وحاول الأفضل أن يرد الحملة الصليبية ، فخرج من مصر على رأس الجيش لمحاربة الصليبيين ، ولكن الجيش المصرى تمرد ، فاضطر الأفضل إلى العودة إلى مصر دون حرب ، وترك الصليبيين يحققون مطامعهم ، فاستطاعوا أن يتزعموا البلدة تلو البلدة ، ولم يأت به الإمام الإسماعيلي أو وزيره بخطر المستعمرين الأوربيين ، وما أسسوه من إمارات في بلاد الشام ، كذلك نقول عن الإمام الإسماعيلي خليفة المستعلي وهو ابنه الأمر بأحكام الله الذي ولي الإمامة وله من العمر خمس سنوات ، وكان في كفالة الوزير الأفضل ثم في كفالة أحمد بن الأفضل اللذين استبدتا بالسلطان في البلاد ، وتركوا الإمام الأمر للهوه ، ثم

تولى الوزير مأمون البطانحى فاستبد بالسلطة كلها ، وكان الأمر قد شب وكثر عبثه ، فكانت هوايته المفضلة هى الجرى وراء الفتيات الأعرايات ، وقصته مع الفتاة البدوية التى أولع بها وتزوجها وبني لها هودجاً فى جزيرة الروضة أصبحت من القصص الشعبية التى يرويها الشعب المصرى مثل قصص ألف ليلة وليلة .

على أن الإمام الأمر قتله الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤هـ ، وهو يعبر الجسر المؤدى إلى جزيرة الروضة لزيارة معشوقته البدوية .

وكان مقتله بدء تطور جديد فى تاريخ الإسماعيلية ، ذلك أن الإمام الأمر لم ينبج ولم يتولى الأمر بعده ، فمضى عمه الحافظ عبد المجيد ابن المستنصر إماماً بالنيابة أو « إماماً مستودعاً » على حسب اصطلاح الإسماعيلية . ولكن سرعان ما دعا الحافظ عبد المجيد لنفسه بالإمامة الكاملة بالرغم من مجافاة ذلك للعقيدة الإسماعيلية وللتقاليد السابقة ، ولكن العقيدة الإسماعيلية كان قد ضعف أمرها فى نفوس الناس ولا سيما فى مصر ، ولذلك لم يأبه المصريون إن كان الحافظ عبد المجيد إماماً بالنيابة أو إماماً حقاً ، فقد هان أمر الإمامة والعقيدة فى نظرهم منذ عهد الحاكم بأمر الله . ولم يعد المصريون ينظرون إلى قدسية الإمام إلا إذا استثنينا منهم هؤلاء الوصوليين الذين يريدون تحقيق مآربهم الشخصية ، وخاصة جماعة المتصلين بالقصر . وقد بلغ من استهانة المصريين بالإمام الحافظ أنهم حاصروه وطالبوه بقتل ابنه الحسن بن الحافظ وإلا قتلوا

الحافظ نفسه ، فاضطر إلى أن يجيبهم إلى طلبهم . ولعل هذه القصة تعطينا فكرة عن مدى ضعف الإمامة الإسماعيلية في مصر ، ولم يكن للمذهب الإسماعيلي - في عهد إمامته أو عهد إمامة من تبعه - أتباع إلا من اعتنق الدعوة الإسماعيلية في عدن ومصر فقط ، إذ فقد هؤلاء الأئمة أتباعهم في البلاد الأخرى . ثم استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يقوض دولتهم من مصر سنة ٥٦٧ هـ ، ويعيد الخطبة في مصر للخليفة المستنصر العباسي ، وبذلك انقرض هذا الفرع من الطائفة ولم يمد له وجود بعد ذلك .

هكذا كان أمر الإسماعيلية المستعلية في مصر وعدن ، ولكن كان للإسماعيلية المستعلية شأن آخر في اليمن في عهد الصليحيين الذين رأوا رأياً في الإمامة بعد اغتيال الأمر يخالف رأى المصريين ، واتخذوا لأنفسهم إماماً غير الذي اتخذوه المصريون ، فكونوا بذلك فرقة إسماعيلية مستعلية جديدة هي التي استمرت بعد أن انقرضت فرقة الإسماعيلية المستعلية بمصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧ هـ ، ولا تزال هذه الفرقة المستعلية الجديدة قائمة إلى اليوم باسم « الإسماعيلية الطيبية » وباسم « الإسماعيلية البهية » ، وقبل أن نتحدث عن هذه الفرقة نرى أو نلم في إنجاز بشيء عن الصليحيين الذين أوجدوا هذه الفرقة (١) .

(١) للأستاذ المحقق الدكتور حسين فيض الله الحمداني بحث مستفيض متم بعنوان « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » (طبع مكتبة مصر بانفجالة)

رأينا كيف أسس منصور اليمن دولة إسلامية في بلاد اليمن
 ولكن هذه الدولة لم تعش طويلا إذ سرعان ما عادت اليمن مرة
 أخرى إلى حكم القبائل المختلفة المتنافرة المتشاحنة . وكانت أكثر
 هذه القبائل تدين بالولاء للخلافة العباسية ، على أن عدداً من
 اليمتئين كان لا يزال على ولائه للإمام الإسماعيلي . واستمر الأمر
 كذلك حتى كانت سنة ٤٣٩ هـ حين قام الداعي علي بن محمد الصليحي
 بثورة استطاع بها أن يخضع بعض قلاع وحصون اليمن لسلطانه
 وأن يدعو بها للإمام الإسماعيلي المستنصر بالله صاحب مصر ،
 واستمر في غزو مدن اليمن حتى دانت له كلها في سنة ٤٥٥ هـ ،
 بل استمر في فتوحاته حتى دخل مكة المكرمة ، وكانت قد خرجت
 عن طاعة الإسماعيليين ، وتهيأ لفتح العراق وانتزاعه من أيدي
 العباسيين لولا أنه قتل سنة ٤٥٩ هـ . ففي مدة حكمه القصيرة التي
 تبلغ عشرين عاما استطاع أن يوحد بلاد اليمن تحت حكمه وأن يضم
 إليها بلاد الحجاز ، كما أعاد الدعوة الإسماعيلية إلى اليمن واستمر
 الحكم في أهل بيته باسم الإمام الإسماعيلي بمصر ، إلى أن تولى
 السيدة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية الحكم وفي عهدها
 توفي الإمام الأمر بأحكام الله وتولى المحافظ عبد المجيد على نحو
 ما ذكرناه من قبل . ولكن الصليحيين رفضوا الاعتراف
 بالمحافظ لأنه ليس له حق في الإمامة ، وزعموا أن إحدى زوجات
 الإمام الأمر المقتول كانت حاملا ، ثم إنها وضعت طفلا ذكرا

اسمه الطيب بن الأمر . فالإمامة إذن لهذا الطفل الذي خاف عليه أحد الدعاة فأخفاه عن الحافظ وأرسله في « مقطف » إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن . وهذه الملكة أخفته وجعلت نفسها كفيلة عليه ونائبة عنه في تولى شئون الدعوة الإسماعيلية ، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الأمر) .

معنى هذا أن الصليحيين باليمن أوجدوا لهم دعوة جديدة : هي الدعوة الطيبية نسبة إلى الطيب بن الأمر الطفل الذي دخل دور السر ، بحيث أصبحنا لا نعرف شيئاً عن الأئمة المستورين منذ اعتراف الصليحيين بإمامة الطيب ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أسماء هؤلاء الأئمة . وفي اعتقادي أن قصة الطيب هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخي ، فإن أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود الطيب بن الأمر إلا ما نراه في كتب دعائه . أما ما يقال عن وجود سجل وجهه إلى الملكة الحرة من الأمر قبل مقتله فإنه في رأيي سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة الطيب ، والصليحيون ودعاة الدعوة الطيبية بعدهم هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب ، بينما سكوت المؤرخون عنه فلم يذكره حتى مجرد اسمه في كتبهم . بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة الأمر التي كانت حاملاً عند موته وضمت أنثى ، ولكن الصليحيين قالوا بل وضمت ذكراً هو الطيب ، ونحن نتساءل عن سبب ستره

مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين والسلطان في أيديهم فلم قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته ، يخيل إلي أن الصليحيين وضعوا قصة الأمر هذه ، حتى يتخذوها ذريعة للانفصال من سلطان الفاطميين الديني وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً . وأوحى دهاء الملكة الحرة وذكاؤها الشديد وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى ، وسار على نهجها كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن . ومهما يكن من شيء فقد انقضت الدولة الصليحية في سنة ٥١١ هـ ولم يبق أتباع الدعوة الطيبية بأي نشاط سياسي بعد ذلك ، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيط خاص بهم ، وكان كثير منهم يتخذ التقية فلا يظهر إسماعيليته بالرغم من وجود داعية لهم ينوب عن إمامهم المستور في تصريف أمورهم الدينية . وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة لنشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند ، ولا سيما في ولاية جوجرات جنوب بمباي ، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك ، وعرفت الدعوة بينهم باسم البهرة ، وكلمة البهرة كلمة هندية قديمة معناها التاجر .

ولكن هذه الدعوة الطيبية انقسمت في القرن العاشر الهجري إلى فرقتين : فرقة البهرة الداودية وفرقة البهرة السليمانية ويرجع

هذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة ، فالفرقة الداوودية تنتسب إلى الداعي قطب شاه داوود ، وهو الداعي السابع والعشرون من سلسلة دعاة الفرقة المستعلية الطيبية المتوفى سنة ١٠٢١ هـ ، والفرقة السليمانية تنتسب إلى الداعي سليمان بن حسن الذي أبي أتباعه الاعتراف بداوود واعترفوا بسليمان في سنة ٩٩٧ هـ داعية لهم . على أن مركز دعوة الفرقة الداوودية انتقل من اليمن إلى الهند في القرن العاشر الهجري ، وداعيتهم الآن هو طاهر سيف الدين . ويمتد الداعي الحادي والخمسين من سلسلة دعاة الدعوة الطيبية ويقم في مدينة بومباي ، وهو كما ذكرنا برتبة الداعي المطلق ، وهي مرتبة وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وصاحبها يتمتع بنفس الصفات التي كان يوصف بها الأئمة ، على أنها صفات مكتسبة وليست ذاتية . وكذلك داعي الفرقة السليمانية على بن محسن الذي يقيم في اليمن ، ولذلك يتمتع الداعيان الداوودي والسليمانى بسلطة روحية تامة على أتباعهما ، هي نفس سلطة الأئمة في العصور الوسطى ، ونستطيع أن ندرك مدى هذه السلطة الروحية التي للداعيين إذا عرفنا أن طائفة البهرة بفرعها متعصبون أشد التعصب لمذهبهم وعقيدتهم ، ومن ثم حافظوا على تقاليدهم التي ورثوها منذ عهد الصليحيين محافظة تامة ، ولا يقبلون تبديلا لتلك التقاليد أو تطورها مع تطور الزمن ، حتى إنك تعرف في سهولة رجل البهرة من ملابسه ومن لحيته

وتميز المرأة من البهرة في الطريق من (الحبرة) التي ترتديها
والنقاب الكثيف الذي تحق به وجهها ، ويتخذون أما كن خاصة
لهم للعبادة لا يدخلها غيرهم أطلقوا عليها اسم « جامع خانه »
فهم لا يؤدون فريضة الصلاة إلا في « الجامع خانه » ويرفضون
أن يقيموا الصلاة في المساجد التي لغيرهم من المسلمين ، وذلك
إيماناً منهم في ستر عقائدهم المذهبية ، والحرص الشديد على أن
لا يعرفها غيرهم من الناس ، مع أنهم شديدو التمسك بقرائض
الدين وأركانها وأن عقيدتهم في « الظاهر » لا تختلف عن عقائد
غيرهم من المسلمين . أما عقيدتهم في « الباطن » فهي بعيدة كل
البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة ، فهم مثلاً يؤدون الصلاة كما
يؤديها المسلمون ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماماً «
ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلي المستور من
نسل الطيب بن الأمر ! ويذهبون إلى مكة المكرمة لتأدية الحج
في موسمهم شأنهم في ذلك شأن جميع المسلمين ، ولكنهم يقولون
إن السكبة التي يطوف حولها الحجيج هي رمز على الإمام «
وهكذا على نحو ما سنحدث عنه في الفصل الخاص بالعقائد في
هذا الكتاب .

ويجب أن نعترف هنا بهذه الخدمة الجليلة التي أدتها طائفة
البهرة للتاريخ الإسماعيلي بفضل محافظتها على التقاليد الإسماعيلية ،
إذ استطاع دعاؤها أن يحتفظوا بشرط كبير من المؤلفات الدينية

والأديسة التي وضعها علماء ودعاة الدعوة في مصر في العصر
الفاطمي ، بينما ضاعت هذه الكتب من مصر نفسها ، وكذلك
حافظوا على الكتب التي وضعها دعاة فارس ، واليمن في العصر
الفاطمي ، فلولا احتفاظ دعاة البهرة بهذه الكتب الفاطمية لما
عرفنا شيئاً عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية إلا عن طريق كتب
أعداء الإسماعيلية ، ولكن مما يؤسف له حقاً أن محافظتهم على
التقاليد والقول بستر عقيدتهم أدى بهم إلى عدم السماح لأحد
بالوصول إلى كتبهم التي يقدسونها ، حتى إنهم غالوا في ستر
هذه الكتب ، فلم يكن الدعاة أنفسهم يسمحون لأبناء الطائفة
بالاطلاع على هذه الكتب ، ومنذ ثلاثة أعوام فقط أذن داعي
البهرة بالهند لأفراد الطائفة فقط بالاطلاع على هذه الكتب ، ومع
هذا الحرص الشديد الذي فرضوه على كتبهم فقد تسرب بعضها
إلى مكتبات مصر وأوروبا وأمريكا ، وقام بعض الباحثين
بنشر قدر لا بأس به من مخطوطاتهم في مصر وفي غير مصر »
فلا أدري سبب تمسكهم بالحرص على ستر كتبهم بعد أن نشرت
هذه الكتب وعرفت أسرار عقائدهم . ومن الخير أن أذكر هنا
أهم الكتب الإسماعيلية التي نشرت في مصر فقط :

١ - كتاب دعاثم الإسلام للقاضي أبي حنيفة النعمان

ابن محمد المغربي « نشره الأستاذ آصف علي أصغر

فيضي » .

- ٢ - كتاب الهداية الآمرية ■ منسوب للإمام الأمر بأحكام الله « نشره الأستاذ آصف على أصغر فيضى » .
- ٣ - كتاب الكشف ، منسوب لجعفر بن منصور اليمن ■ نشره المستشرق ستروتمان ■ .
- ٤ - كتاب الزينة ، للداعى أبى حاتم الرازى « نشره الأستاذ الدكتور حسين فيض الله الحمدانى » .
- ٥ - استتار الإمام ، للداعى أحمد بن إبراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف » .
- ٦ - سيرة جعفر بن الحجاب ، للداعى أحمد بن إبراهيم النيسابورى « نشره المستشرق . و . ايفانوف » .
- ٧ - السجلات المستنصرية (رسائل المستنصر بالله إلى الصليحيين) « نشره الدكتور عبد المنعم ماجد » .
- ٨ - المجالس المستنصرية ، للداعى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ٩ - المهمة فى آداب أتباع الأئمة ، للقاضى النعمان بن محمد المغربى « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١٠ - رسالة الرشد والهداية ، للداعى منصور اليمن « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .
- ١١ - ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٢- سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة (كتبها المؤيد

نفسه) « نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٣- راحة العقل ، للداعي أحمد حميد الدين الكرمانى

« نشره الدكتور محمد كامل حسين والدكتور محمد

مصطفى حلمى » .

١٤- الرسالة الواعظة ، للداعي أحمد حميد الدين الكرمانى

« نشر الدكتور محمد كامل حسين » .

١٥- الرسالة الدرية ، للداعي أحمد حميد الدين الكرمانى

« نشر الدكتور محمد كامل حسين » .

١٦- رسالة النظم ، للداعي أحمد حميد الدين الكرمانى

« نشره الدكتور محمد كامل حسين » .

١٧- ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله « نشر محمد كامل

حسين وآخرين » .

١٨- سيرة الأستاذ جوفز ، لأبى منصور العزيزى « نشره

محمد كامل حسين والدكتور محمد عبدالمهادى شعيره) .

هذه هى أشهر الكتب الإسماعيلية التى نشرت فى مصر فى

السنوات العشر الأخيرة فقط ، ومنها ندرك أن دراسة الإسماعيلية

دخلت فى دور جديد بعد تسرب الكتب التى يحتفظ بها البهرة

فى مكتبات دعاةهم إلى الخارج . وقد نشط أخيراً الإسماعيلية

وغير الإسماعيلية بالشام في نشر كتبهم وخاصة ما ألف منها في العصر الفاطمي ، فقد علمت أخيراً أن أحد أساتذة جامعة دمشق ينشر كتاب « تأويل دعائم الإسلام » ، وأن صديقنا الأستاذ عارف تاصر يجمع الآن المخطوطات الإسماعيلية بسورية لإعدادها للنشر ، وفي العراق نشر الأستاذ عباس المزاولي كتاب « سمط الحقائق » للداعي البني علي بن حنظلة ، ونشر الأستاذ محمد وحيد ميرزا أستاذ اللغة العربية بجامعة لسكرهو بالهند كتاب الاقتصار للقاضي النعمان بن محمد ، وهكذا يوالى الباحثون نشر مخطوطات الإسماعيلية مما سهل دراسة تاريخ وعقائد الإسماعيلية ، وذلك كله بفضل محافظة البهرة على ما تركه أجدادهم في مصر واليمن . وفضل آخر نذكره لدعاة البهرة الداوودية بالهند : ذلك أنهم أنشأوا لهم في مدينة سورات بالهند مدرسة لتدريس اللغة العربية والعقائد الإسماعيلية أطلقوا عليها أخيراً اسم « الجامعة السيفية » . ولا أغالى إذا قلت إن علماء البهرة في الهند أقدر من الهند على التحدث باللغة العربية وفهمها . وقد اعتاد « طاهر سيف الدين » داعي البهرة الداوودية أن يلقى بنفسه محاضرات على أتباعه في شهر رمضان من كل عام باللغة العربية ، وتطبع هذه المحاضرات في مجلدات باسم « الرسالة الرمضانية » فلولاً محافظة البهرة على تقاليدهم القديمة واهتمامهم بآثار من سبقوهم لصنعت اللغة العربية بينهم . حقيقة أن طائفة البهرة في الهند يتحدثون اللغة الجوجراتية أو اللغة الأوردوية ،

ولكن العلماء منهم يجيدون العربية إجابة تامة ، وطائفة البهرة
بفرعها يحترفون التجارة وخاصة تجارة الحدايد وأدوات الممار
والنسوجات . ولا يزيد عددهم في العالم على مائتي ألف نسمة
نراهم متفرقين في بلاد الهند والباكستان وعدن ، وفي جبال
حراز باليمن طائفة منهم يطلق عليهم الآن القرامطة أو الباطنية
ولا يعرف عددهم تماماً ، والبهرة أينما وجدوا يمثلون الأقليات
أظهر تمثيل من ناحية الوحدة القومية التي تربطهم ببعض
وروح التعاطف والمساعدة مما جعلهم في حالة مالية يحسدكم عليها
الكثيرون ، فلا تجد بينهم فقيراً أو محتاجاً ، وإذا حلت بأحدهم
كارثة هب الباكون لمساعدته ، وهم جميعاً يقدسون داعيهم المطلق
تقديساً تاماً ويطيعونه طاعة عمياء ، وقد استغل المستعمر
الإنجليزي هذه الظاهرة ففتح الدعاة من أسلاف « طاهر
سيف الدين » نفوذاً ضخماً عريضاً في الهند ، إذ ترك لهم الإنجليز
كل السلطة على أتباعهم حتى إنهم كان في استطاعتهم أن يحرموا
الموتى من الدفن في مدافن الطائفة ، وكان لهم أن ينشوا قبورهم
انتقاماً من أحد الأفراد ممن سولت له نفسه الخروج عن طاعتهم ،
ولهم أن يستولوا على ما يتركه الميت من ذخائر ونفائس دون أن
يجرؤ أحد على مخالفة أمرهم ، واستغل الداعي سلطانه هذا لتنمية
ثروته ومضاعفتها . فكان يفرض ضرائب مجببة على أتباعه ،
فتلا كل من يخالف التقاليد كان يدفع ضريبة للداعي ، فإذا أراد

أحد أفراد الطائفة أن يخلق لحيته فعليه أن يدفع ضريبة للداعي ،
وإذا أراد فرد أن يرتدى الزى الأوربي فعليه أن يدفع ضريبة للداعي ،
وكل من يذهب إلى الحج عليه أن يدفع الضريبة وأن ينزل في
الفنادق التي أقامها الداعي في مكة والمدينة وأما كن الزيارة بالعراق
وتعرف « بالهرة خانه » . أما الآن بعد استقلال الهند فقد أصبح
الداعي مواطناً عادياً خاضعاً للقانون شأنه في ذلك شأن أى فرد
في الدولة ، وتخلص نفوذه السابق فأصبح لا يخشاه أتباعه كما كانوا
يخشونه من قبل ، وإن كانوا لا يزالون يقدسونه . ومع هذا النفوذ المطلق
الذي كان للداعي قبل استقلال الهند ، فقد انشق من رياسته وخلع
طاعته بعض أفراد قومه منه بعض تصرفاته المالية وكونوا لأنفسهم فرقا
صغيرة . نذكر من هؤلاء على بن إبراهيم (المتوفى سنة ١٦٢٤ م)
الذي كون فرقة العلوية ، ومنهم فرقة الناجوشية الذين يقيمون
في ولاية بارودا بالهند . وهذه الفرقة كانوا في الأصل من براهمة
الهند ثم اعتنقوا الإسماعيلية الطيبية حوالي سنة ١٧٨٩ م ، ولذلك
زاهم يتبعون في معيشتهم نفس التقاليد التي عند البراهمة ومنها
عدم أكل اللحوم ، وفرقة الهبتية أتباع هبة الله بن إسماعيل
ابن عبد الرسول المتوفى في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي
وهؤلاء يقيمون الآن في أوجاف بالهند ، وفرقة عهدي باغ أتباع
عبد الحسين بن جواجي المتوفى في أواخر القرن التاسع عشر
الميلادي وقيمون الآن في ناجبور بالهند ، وغير ذلك من الفرق

الصغيرة التي انشقت عن الفرقة الطيبية الداوودية ، ولكن أتباع هذه الفرق قليلو العدد جداً . وليس لهم أى نشاط سياسى أو اجتماعى إلا فى حدود فرقهم فقط .

هكذا كان شأن الدعوة الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية المستعلية التي كان مركزها مصر ، ومع ذلك لا يوجد الآن من المصريين إسماعيلى واحد بالرغم من أن الإسماعيلية حكموا مصر زهاء قرنين من الزمان ، ولكن زال من مصر كل ما بذره الإسماعيلية فيها . ونحىل إلى أن المصريين لم يمتنعوا هذه الدعوة عن عقيدة يدينون بها . إنما اعتنقها بعض المصريين عن رهبة أو عن رغبة عاجلة ، ثم سرعان ما عادوا إلى صوابهم فطرحوا هذه العقيدة ، وعادوا إلى رأى أهل السنة والجماعة ، ومع ذلك كله فلا تزال بعض الرواسب الإسماعيلية فى مصر ولا سيما عند الدهماء والعامية . وستحدث عنها فى فصل العقائد الإسماعيلية .

أما أئمة الدعوة الإسماعيلية فى مصر فهم :

١ — المستعلى أبو القاسم أحمد : تولى فى ذى الحجة سنة

٤٨٧ هـ .

٢ — الآمر أبو على المنصور : تولى فى صفر سنة ٤٩٥ هـ .

٣ — المحافظ أبو اليمون عبد المجيد : تولى فى المحرم سنة

٥٢٥ هـ .

٤ - الظافر أبو المنصور إسماعيل : تولى فى جمادى الآخرة

سنة ٥٤٤ هـ .

٥ - الفائز أبو القاسم عيسى : تولى فى صفر سنة ٥٤٩ هـ .

٦ - العاضد أبو محمد عبد الله : تولى فى رجب سنة ٥٥٥ هـ .

والذين يعترف بهم البهرة من هؤلاء الأئمة هم المستعلى والأمير
 قطع ثم الطيب بن الأمر الذى دخل الستر سنة ٥٢٥ هـ . والأئمة
 المستورون من نسله إلى الآن . وهؤلاء الأئمة الذين فى الستر
 لا نعرف شيئاً عنهم حتى إن أسماءهم غير معروفة ، وعلماء البهرة
 أنفسهم لا يعرفونهم .

الفصل الرابع

الإسماعيلية الشرقية في فارس

كان للإسماعيلية الشرقية أو الإسماعيلية النزارية شأن خطير يختلف تمام الاختلاف عما كان للإسماعيلية الغربية ، فقد قام النزارية بدور كبير في السياسة في إيران والهند والشام ، وخشى بطشهم الملوك والأمراء ، كما كان لهم أثر يذكر في الحروب الصليبية ، وذلك كله يرجع إلى النظام الجديد الذي أوجدوه في فرقهم وهو نظام القدائين .

ذكرنا أن الوزير في مصر الأفضل بن بدر الجمالي ولي ابن أخته المستعلي إمامة الإسماعيلية ، فثار صاحب الحق الشرعي في الإمامة وهو نزار بن المستنصر ، ولكن فشلت ثورته وقبض عليه هو وابنه وقتلا ؛ وكان بمصر داعية من فارس وهو الحسن ابن الصباح . جاء إليها حاجاً إلى إمامه المستنصر بالله وذلك قبل موته ببضع سنين ، وسمع منه أن نزاراً هو صاحب الأمر من بعده . فلما عاد إلى بلاده من مصر . جمع حوله عدداً من الفلاحين الإيرانيين ، واستجاب له كل من شعر بظلم السلاجقة الأتراك وسوء حكمهم ، ولا سيما ما كان من ملكشاه السلجوقي الذي كان

غشوماً ظالماً إلى أبعد حد ، فقد اضطهد الناس جميعاً ولا سيما طائفة الشيعة وخاصة الإسماعيلية منهم اضطهاداً شديداً لم يعرف من قبل ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، مما جعل الناس في عهده تراودهم أحلام الشيعة الذهبية القديمة من تمنى وجود إمام عملاً في الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، فجاءهم الحسن بن الصباح يبشر بقرب تحقيق هذا الحلم ، فاستطاع في فترة وجيزة وبمن التف حوله من جموع الفلاحين أن يصارعوا أعداء الإسماعيلية صراعاً عنيفاً جداً .

وأتخذ الحسن بن الصباح مبدأ القتل وسيلة لتحقيق أهدافه ، فكان يأمر أتباعه باغتيال كل من يقف في طريقه أو يخافه ، حتى استطاع أن يمتلك قلعة آلموت (جنوبي بحر قزوين) ، وأن يؤسس بها الدولة الإسماعيلية التي عرفت في التاريخ بأسماء متعددة مثل الإسماعيلية — الزارية — الباطنية — السبعية — التعليمية — الحشيشية — الملاحدة — وعرفت عند كتاب الغرب باسم السفاكين . ووضع لهذه الدولة نظماً مختلف تمام الاختلاف عن النظم التي رأيناها عند الإسماعيلية الغربية أو الإسماعيلية في العصر الفاطمي . وقطع الحسن بن الصباح علاقته بأئمة الإسماعيلية الغربية واعتبرهم من أعدائه الألداء ، بل عمل على إزالتهم من الوجود ، فأرسل القدائين لاغتيالهم ، كما كان يقتال جميع أعدائه ، حتى ضج الناس من كثرة قتلاه ، وخاف كل واحد على حياته ، ويكنى أن أنقل

هنا ما ذكره المؤرخ عماد الدين الأصفهاني في كتابه « تاريخ دولة آل سلجوق » عن الحالة المصيبة التي أصابت المجتمع الإسلامي في تلك الأيام وكيف كان الإنسان لا يأمن على نفسه أو ذويه من بغتات الفدائيين ، حتى إن الأخ لم يكن يثق بأخيه أو الأب بابنه ، فهو يقول : « فنابت النوائب وظهرت المعائب ، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا » وكانوا معنا في الكتب وأخذوا حظاً وافراً من الفقه والأدب ، وكان بينهم رجل من أهل الرأي ساح في العالم ، وكانت صناعته الكتابة ، نفق أمره حتى ظهر وقام ، فأقام من الفتنة كل قيامة واستولى في مدة قريبة على حصون وقلاع مقيمة وبدأ في القتل والفتك بأمور شنيعة وخفيت عن الناس أحوالهم . . وأخافوا السبل وأجلوا على الأكابر الأجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير ويعلم أنه يقتل فيقتله غيلة ، ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة » ، هذا ما قاله المؤرخ المهاد الأصفهاني الذي عاش في أيام هلع الملوك والأمراء من الفدائيين الذين أنشأهم الحسن بن الصباح ، فن هو الحسن بن الصباح هذا الذي أوقع الرعب في نفوس الناس إلى هذا الحد .

الحسن بن الصباح :

ولد الحسن بن الصباح في مدينة الري (وفي قول آخر في مدينة قم بفارس) حوالي سنة ٤٣٠ هـ في أسرة اتخذت التشيع

على مذهب الاثنى عشرية مذهباً لها ، وكان الشيعة عامة مضطهدين
فالتخذوا التقية وأظهروا تذهبهم بالمذهب السني بين الناس حتى
لا يحقيق بهم الأضرار ، وعلى هذا النحو فعل والد الحسن بن
الصباح . إذ أظهر تسننه وأرسل ابنه الحسن إلى نيسابور لتلقي
العلم على الإمام موفق الدين النيسابوري السني المذهب الذي عرف
بين الخاصة والعامة في ذلك الوقت بأن ما من أحد تلمذ عليه
إلا أقبلت عليه الدنيا ووفق في مستقبل حياته توفيقاً يحسد عليه ،
وأثناء طلب الحسن العلم في نيسابور اتخذ أصدقاء له ولكنه اصطفي
منهم اثنين أصبح لهما شأن كبير فيما بعد هما الوزير نظام الملك
والشاعر المتصوف عمر بن الحيام ، واستطاع نظام الملك أن
يساعد الحسن بن الصباح فألحقه في وظيفة بديوان الكتابة في
بلاط الملك ملكشاه ، وسرعان ما أصبح ذا حظوة لدى السلطان
فترقى سريعاً في وظائف البلاط ، إلا أن ملكشاه وموظفيه
فطنوا إلى مطامع الحسن بن الصباح وأسالييه العنيفة التي يتبعها
للوصول إلى أغراضه ، ثم حدث بينه وبين صديقه نظام الملك
خلاف على شيء من المال فكان ذلك سبباً في طرده من بلاد
ملكشاه .

ويحدثنا المؤرخ الفارسي علاء الدين الجويني في كتابه
« جهان گشای » أنه نقل عن سيرة الحسن بن الصباح التي

كتبها عن نفسه أنه قال عن نشأته الأولى وعن اعتناقه المذهب
الإسماعيلي :

« منذ طفولتي بل منذ السابعة من عمري كان جل اهتمامي
تلقى العلوم والمعارف ، والتزود بكل ما أستطيعه منها في سبيل
توسيع مداركي ، وكنت كإبائي قد نشأت على المذهب
الاثنى عشري في التشيع ، ولم أكن أرى في غيره طريقاً للخلاص
من آفات العالم ، ولكن حدث أن تعرفت في شباني إلى أحد
دعاة الاسماعيلية الفاطميين ، فسكنت أجاده جدالاً عنيفاً ، وأخذ
كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية ،
إلا أن حججه الدامنة تركت عندي أثراً قوياً جداً ، ثم افترقت
عن الداعي قبل أن أعتنق مذهبه ، وبعد قليل أصابني مرض
ألزمني الفراش ، فخشيت أن تحتطفني يد المنون قبل أن أتطهر
باعتناق المذهب الاسماعيلي إذ اعترمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتي
مع الداعي ، ولما عوفيت وتعرفت إلى أبي نجم السراج ، رغبت
إليه في أن يزيدني حديثاً عن مذهبه ، وأخذت أفكر تفكيراً
عميقاً في تعاليم هذا المذهب ، ثم قدر لي أن أعرف بالداعي مؤمن ،
وكان موفداً إلى مدينة الري من قبل عبد الملك بن عطاش داعي
الدعاة في المراقين (أي في العراق المعجمي والعراق العربي)
فتوسلت إليه أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر ، وأن
يأخذ عليّ العهد والوفاق ، فتردد الداعي ثم أجابني إلى طلبي

وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمي بمصر ، ولما وفد عبد الملك بن عطاش داعي الدعوة إلى الري مثلت بين يديه ، ولما وقف على آرائه واختبر استعدادي ، عهد إلى بيت الدعوة ، وبذلك أصبحت داعياً اسماعيلياً ، ثم وجهني بقوله : « عليك بالوفود على القاهرة لننعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر » ولما غادر عبد الملك بن عطاش الري في طريقه إلى أصبهان ، كنت أنا أيضاً في طريقى إلى القاهرة .

هكذا اعتنق الحسن بن الصباح مذهب الاسماعيلية ، وجعله داعي الدعوة عبد الملك بن عطاش داعياً للمذهب ، بل أمره بالوفود إلى القاهرة ليستقى علوم الدعوة عن شيوخها الذين كانوا حول الإمام ثم لمقابلة الإمام نفسه ، وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الاسماعيلية ، بل هي التأويل الباطني للحج عندهم ، فالحج الظاهر هو زيارة بيت الله الحرام ، أما الحج الباطن فهو زيارة الإمام ، ومهما يكن من شيء فإن اختيار ابن عطاش له ليسكون داعياً دليل على ما كان يتمتع به الحسن الصباح من صفات خلقية وعقلية أهله لأن يكون داعياً للمذهب ، فلم يكن من السهل أن يصل كل اسماعيلي إلى هذه المرتبة الروحية عندهم ، فقد وضعوا شروطاً خاصة لمن يتولى الدعوة توافرت كلها في الحسن بن الصباح ، وسنتحدث عن ذلك في الفصل الذى نعقده لشرح نظم الدعوة .

وصل الحسن بن الصباح إلى القاهرة سنة ٤٧١ هـ ، وكان

طول الطريق يعني نفسه أن يأخذ علوم الدعوة الإسماعيلية عن
 للمؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي الذي كان في مرتبة
 داعي الدعوة وحجة الإمام ، وهي مرتبة لم يصل إليها في تاريخ
 الإسماعيلية إلا عدة أفراد فقط . ولكن المؤيد توفي قبل أن
 يصل ابن الصباح إلى القاهرة ، ووجد ابن الصباح كتب المؤيد
 وتلاميذه فاشتدت صلته بهم ، ويخيل إلى أنه لم يجد من الوزير
 في مصر « بدر الجمالي » ما كان يؤمله من ترحيب ، بل ظهر
 تبرم الوزير لمقام ابن الصباح في مصر ، ولا سيما أنه بهر كل من
 اتصل بهم بحدة ذكائه وتوقد ذهنه ، وما أظهره من إخلاص
 لإمامة المستنصر بالله واستعداده أن يضحي بنفسه في سبيل الإمام ،
 فغشى الوزير بدر الجمالي منه وعمل جاهداً على إخراجهم من مصر ،
 فبدأ الوزير يدبر المؤامرات للإيقاع بابن الصباح ، فأوغر أولاً
 إلى رجاله أن يوغرُوا صدر ابن الصباح حتى يخطئ ، فتكون
 عند الوزير ذريعة لإلقاء القبض عليه والزج به في السجن ، ولكن
 ابن الصباح كان حذراً أشد الحذر من مثل هذه الدسائس
 والمؤامرات التي كانت تحاك ضده ، كما أن بعض أصدقائه نصحوه
 بأن يضاعف حذره ، وأن ينجو بحشاشة نفسه بالهرب من دسائس
 الوزير « بدر الجمالي » فأثر الحسن بن الصباح السلامة وهرب من
 مصر بعد أن قضى بها زهاء عام ونصف عام فقط ، لم يقابل إمامه
 خلالها إلا مرة واحدة فقط ، وفي هذه المقابلة الوحيدة عرف أن

إمامه المستنصر نص على أن يكون ابنه تزار إماماً من بعده .
 تنتقل الحسن بن الصباح بعد أن ترك مصر في بلاد الشام
 والعراق وخوزستان ويزد ، وكان يدعو للمذهب الاسماعيلي في كل
 بلد نزل به ، فاستجاب له عدد كبير من الخلق . وكان يفكر
 طول وقته في طريقة يخلص بها إمامه المستنصر بالله الفاطمي عما
 كان يمانيه من تغلب وزيره بدر الجمالي عليه واستثارة بالسلطة
 من دونه . كان ابن الصباح يريد الانتقام لإمامه من هذا الوزير
 والانتقام لنفسه أيضاً من هذا الرجل الذي كاد له وتآمر عليه حتى
 اضطره إلى الهروب من مصر . وهداه تفكيره إلى ضرورة القيام
 بعمل جاسم سريع وهو تأسيس دولة في فارس ينتقل إليها الإمام
 المستنصر بالله ويتخذها مركزاً له وللدعوة الاسماعيلية بدلا من
 مصر ، فأعد لمشروعه هذا عدته ، ورسم الخطوات التي يجب أن
 تتبع لتحقيقه . فأكثر من اجتذاب الجماهير المتمشقة إلى العدل
 والتي ضاقت بها الحياة من طغيان حكم السلجوقيين الأتراك ،
 واختار عدداً من الدعاة ذوي المواهب الفذة في المجادلة وأرسلهم
 إلى القلاع والحصون التي في جنوب بحر قزوين ، وتمكن هؤلاء
 الدعاة من أن يدخلوا عدداً كبيراً من سكان هذه القلاع والحصون
 في الدعوة الاسماعيلية ولا سيما طبقة الجند . وكان ممن استجاب
 له جنود قلعة آلموت (ومعناها عش العقاب) وهي قلعة منيعة
 على جبل وجوها وهاد بحيث لا يبلغها الأعداء إلا بشق الأنفس ،

ولناعة هذه القلعة ركز ابن الصباح جهوده لامتلاكها ، فاستخدم
 عنصر الدعوة أولاً للوصول إلى هدفه ، فلما نجح دعاته في تحويل
 جنود القلعة إلى المذهب الاسماعيلي ، أوغز إلى دعاته أن يوجهوا
 إليه دعوة لزيارتهم ، فوجهت إليه الدعوة بين مظاهر الفرح ،
 وذهب ابن الصباح إلى القلعة متشكراً متحلاً اسماً غير اسمه ،
 ولم يعرفه أحد من أتباعه في القلعة سوى الدعاة فقط ، أما غير
 الدعاة فكان يتظاهر أنهم بأنهم نائب عن ابن الصباح جاء
 ليتفقد أحوالهم قبل أن يزورهم ابن الصباح . قضى ابن الصباح عدة
 أيام في تنكره هذا وهو يدرس القلعة دراسة دقيقة ويتبين معالمها ،
 ويفحص حصونها وأحوال الناس بها . فلما عرف كل ما كان
 يريده أظهر شخصيته . وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له
 نظير مبلغ معين من المال يتسلمه من حاكم مدينة الدامغان (بجنوبي
 قزوین) ، وكان حاكم الدامغان ممن دخل المذهب الاسماعيلي سراً
 وكان يأتمر بأوامر الداعي ابن الصباح سراً بالرغم من أنه كان من
 عمال السلاجوقين ، فلم يستطع حاكم قلعة الموت المقاومة عندما
 علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم أصبحوا طوعاً وإرادة ابن
 الصباح ، ولذلك سلم القلعة سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ودعا فيها
 ابن الصباح باسم المستنصر بالله إمام الاسماعيلية في مصر ، وبذلك
 دخلت الاسماعيلية في فارس في دور جديد منذ استطاع ابن الصباح
 أن يستولى على قلعة الموت . إذ عمل على توسيع رقعة دولته

الجديدة ، وقد ساعده الحظ إذ مات ملكشاه السلطان السلجوقي
عدو الاسماعيلية اللدود بعد الاستيلاء على قلعة آلموت بستتين ،
ومزقت أملاك السلجوقيين من بعده ، فضعفوا وهان أمرهم في
الوقت الذي اشتدت فيه شوكة الاسماعيلية في فارس ، واستطاع
ابن الصباح أن يضم عدة حصون وقلاع إلى دولته ، فحقق بذلك
الشرط الأول من حلمه ، وهو تأسيس دولة إسماعيلية في فارس ،
وأراد أن يحقق الشرط الثاني من هذا الحلم وهو استدعاء الإمام
المستنصر ليتولى أمور الدولة في فارس ، ولكن جاءت الأخبار
بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ والدعاء في مصر بإمامة المستعلي بن
المستنصر من دون صاحب الحق الشرعي في الإمامة وهو زرار بن
المستنصر « فثار الحسن بن الصباح وأبى الاعتراف بالمستعلي ،
وخطب باسم زرار ، وأرسل بعض الفدائيين إلى مصر لإحضار
زرار أو أحد أبنائه إلى آلموت ، ولكن الوزير في مصر قتل
زراراً وابنه ، واستطاع الفدائيون أن يستنصبوا ابناً آخر لزرار
إلى آلموت « وهناك أخفاه الحسن بن الصباح حتى تأتى فرصة
مناسبة يظهره فيها ، وبقتل زرار أصبح الحسن بن الصباح صاحب
الأمر في الدعوة الاسماعيلية الجديدة وهي الدعوة التزارية ، دون
أن يدعى الإمامة وإن كان العقل التدبر واليد الفعالة لجميع الحوادث
التي كانت تجري في العالم الإسلامي في ذلك العصر ، اعتذر عن
مقابلة الناس وعكف على القراءة والكتابة ، ومن منزله كانت

تخرج الأوامر والرسائل إلى دعاة وإلى الذين اختارهم لتنفيذ
 سياسته دون أن يقابلهم « حتى قيل إنه لم يشاهد خارج منزله في
 آلموت سوى مرتين فقط ، وهنا أذكر أحد أوامره مما كان له أثر
 كبير في أن تفسح حوله قصص خيالية طريفة ومنها ما ظهر على
 الشاشة البيضاء ، قد أصدر ابن الصباح أمراً بأن تزرع سفوح
 الجبل الذي بأعلاه قلعة آلموت ، فكان منظر الجبل بعد أن كسته
 الخضرة وأينعت فيه الزهور سبباً في هذه القصة التي رواها الرحالة
 ماركو بولو البندقى في القرن الثالث عشر الميلادى وهى قصة
 « جنة شيخ الجبل » . فقد ذهب ماركو بولو إلى أن « شيخ
 الجبل » — أى الحسن بن الصباح — أنشأ في واد يقع بين
 جبلين حديقة فيحاء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور وأشجار
 الفاكهة « وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل
 وزخرفها بنقوش ذهبية ، وجعل في هذه الحديقة أنهاراً من خمر
 وأخرى من عمل وثالثة من لبن ، وأقام فيها الحور العين والولدان
 المخلدين ، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص ، وذلك كله لفتنة
 أتباعه بأن هذه هى الجنة التى وعد الله بها المتقين ، وأن باستطاعة
 شيخ الجبل أن يدخل جنته هذه من يشاء ، ويحرم منهما من يشاء ،
 ولذلك تقام في طاعته وامتنال أوامره ، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها
 إلا طبقة القدامى فقط . هذه القصة كانت مثاراً لأحاديث كثيرة
 عن الحسن بن الصباح وجنته ، كما كانت اللهمة لعدد كبير من

كتاب القصة للكتابة في هذا الموضوع . وصدق القصة عدد من أعداء الحسن بن الصباح . ولعل السبب الذي من أجله صدق الناس هذه القصة الخرافية وتحاولوا إثبات صحتها لمن شك فيها هو نظام الفدائيين الذي أوجده الحسن بن الصباح لأول مرة في التاريخ ؛ ففي زيارة الحسن بن الصباح لمصر شاهد في القصر الصغير الفاطمي عدة حجرات كان يقيم بها شبان أحداث السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية ، جميعهم الإمام الفاطمي في قصره ليربهم تربية خاصة حتى يصطنعهم في حكم دولته بعد أن يبلغوا سن الرجال ، وكان اعتماد الإمام الفاطمي في الحكم على هؤلاء الذين نشأوا في قصره تحت رعايته وتعلموا فنون الفروسية والسياسة والدعاية في القصر الفاطمي على أيدي أخصائيين مهرة في هذه الفنون بإشراف الإمام نفسه ، رأى ابن الصباح هؤلاء الشبان فأعجبه نظامهم وتربيتهم ، وعرف بذكائه ودهائه كيف يقتبس نفس نظامهم في تدريب الشباب على أعمال تحقق أهدافه ويستعين بهم في القضاء على أعدائه ، فلما تم له امتلاك قلعة آلموت جمع إليه طائفة سالحة من الأطفال من أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للإسماعيلية واستعدادهم للتضحية في سبيل مذهبهم ، وأخذ في تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يقوله لهم ، ثم بث فيهم حب التضحية في سبيل العقيدة والإمام ولما اشتد ساعدتهم أخذ يدرّبهم على استعمال الأسلحة المروفة في تلك الأيام ولا سيما

الخناجر ، أضف إلى ذلك كله أنه كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم . بحيث لا يبوح أحد بسر الجماعة التي ينتمى إليها ، فإذا قبض عليه أحد الأعداء فلا يبوح بكلمة واحدة ، بل يجب عليه أن يقتل نفسه قبل أن يضطر إلى أن يتفوه بكلمة واحدة ؛ وكان ابن الصباح صارما في تنشئة هؤلاء الأبطال على هذا النحو ، قاسياً عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح في إعداد طائفة من الفدائيين أفزعوا العالم الإسلامي كله ، وجماعة الصليبيين أيضاً حتى إن الكتاب الغربيين أطلقوا على الاسماعيلية الزارية اسم « السفاكين » لما قام به الفدائيون إبان الحروب الصليبية .

أما المؤرخون من الشرقيين (الفرس والعرب) فأطلقوا على هذه الفرقة عدة أسماء منها « الحشيشيين » ، وقالوا إن السبب في هذا الاسم أن الحسن بن الصباح كان يحدد الفدائيين بمادة « الحشيشة » وأنه عودهم على تماطى هذه المادة بحيث جعلهم مدمنين ولا يستطيعون الحياة بدونها ، فكان يطلب منهم القيام بهذه الأعمال الخطيرة نظير حصولهم على الحشيشة ، فإذا نفذوا أوامره أعطاهم الحشيشة وأدخلهم جنته ، وكل هذه الأقوال خرافية فالها أعداؤهم عنهم . والحقيقة تخالف ذلك مخالفة تامة ، فمن المعروف أن مدمن الحشيشة جبان لا يستطيع أن يقوم بالأعمال الخطيرة التي كان يقوم بها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل

نفسه إذا فشل في مهمته ، والحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل
وتجعل المدمن يهذى ويوحد بأشياء وأسرار ربما حاول أن
يكتسبها ، بينما الفدائي الاسماعيلي كان يمتاز بالفطنة والكياسة
والدقة التامة في كل أعماله وتصرفاته ، وتقدير موقفه تقديراً يحق
له النجاح مع شدة الحرص على السكتمان ، وهذا كله لا يتفق مع
الإيمان على الحشيشة ، مما جعل الكتاب والمؤرخين المحدثين
لا يصدقون قصة الحشيشة كما لم يصدقوا قصة الجنة ، بل كتبوا
الفصول الطويلة عن الفدائيين والدور الذي قاموا به ضد
السلجوقيين وضد الاسماعيلية الغربية في مصر ، كانوا يقتالون كل
من تحدته نفسه بعداء الاسماعيلية الشرقية ، ولا سيما الملوك
والأمراء والوزراء ، ويقال إن أول من اغتاله الفدائيون هو الوزير
السلجوقي نظام الملك — زميل الحسن بن الصباح في الدراسة —
الذي كان يدير الحملات التبائية التي كان يشنها السلاجقة ضد
الاسماعيلية ، وتوالت ضربات الفدائيين للأمراء السلجوقيين
ورجال دولتهم حتى شاع النعر في أرجاء البلاد ، وكثر الحديث
عن الفدائيين وأعمال البطولة التي يقومون بها ، بل كان الفدائيون
من عوامل انتشار نفوذ الإسماعيلية بين الجند والشعب ، وكان
الأمير السلجوقي يستعين بالحسن بن الصباح للقضاء على عدوه ،
أو يصانع ابن الصباح حتى يسلم بمحاشاة نفسه خوفاً من بطشه ،
ومع ذلك كله فقد كان بعض أمراء السلجوقيين يعمنون بجيوشهم

للمناصرة الإسماعيلية ، فكانت جيوشهم ترد مدحورة مهزومة
حتى اضطر السلطان سنجر السلجوقي إلى مهادنة الإسماعيلية
وعقد صلح معهم خوفاً منهم على نفسه بعد أن استيقظ من نومه
في الصباح فوجد خنجراً بجوار فراشه ، الأمر الذي أفرعه ؛
وعلم أنه لا حياة له مع عدائه للإسماعيلية ، ولذلك أرسل وفداً
إلى الحسن بن الصباح لعقد صلح معه .

ومما يروى في هذا الصدد أن وفد السلجوقيين في المفاوضة
عاد إلى السلجوقي وأخذ كل واحد منهم يقص عليه بعض
ما أذهله من أمر زعيم الإسماعيلية وطاعة طائفته له ، من ذلك أنه
أمر أحد أتباعه أن يعمد خنجراً في صدره ليقتل نفسه ، فنفذ
القدائي هذا الأمر دون تردد ، وأنه طلب من فدائي آخر أن يلقى
بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية ، ففعل القدائي في الحال
ما أمر به دون خوف ولا وجل ، كل هذا وأمثاله أدخل الرعب
في نفس السلطان السلجوقي فبادر بمقد الصلح حتى يطمئن إلى
حياته . وبعد هذا الصلح ساد الهدوء بعض الشيء بعد أن
استمرت الحروب بين الإسماعيلية والسلاجقة زهاء ثلاثين سنة .
أما عن عدائه للإسماعيلية القريبة في مصر . فقد ذكرنا أن الحسن
ابن الصباح لم ينس أن ينتقم لإمامه زار الذي قتل بمصر ، لهذا
أرسل القدائين لقتل الإمام الأمر بن المستمل الإمام الإسماعيلي
في مصر ، بل كان الحسن بن الصباح ومن جاء بعده من « شيوخ

الجليل ■ سبباً في هذه المؤامرات العديدة التي دبرت بعصر في
أواخر العصر الفاطمي مما أضعف الدولة الفاطمية الإسماعيلية
إلى أن قوض صلاح الدين يوسف بن أيوب أركانها .

هكذا كان الحسن بن الصباح يعمل على بسط نفوذه ، ونشر
دعوته بين قوم يضمرون العداء الشديد لطائفة الإسماعيلية ،
وإزداد عداؤهم وسخطهم على الإسماعيلية بسبب سياسة الحسن
ابن الصباح التي كانت تقوم على الاغتيال وإراقة الدماء . وبجانب
هذه السياسة الدموية التي نهجها ابن الصباح رآه قد اتبع سياسة
أخرى هي أقرب ما تكون إلى سياسة الحرب الباردة المعروفة
أيامنا هذه ، إذ كان يرسل دعاة لمناظرة ومجادلة أصحاب المذاهب
الأخرى أمام الناس ، ودعاة الإسماعيلية عرفوا منذ عهودهم الأولى
أنهم أقدر الناس حجة وألسنهم فصاحة وأكثرهم موهبة في
الجدال ، لأنهم مرنوا على ذلك كله ، وأهلوا له حتى أصبحوا
ذوي كفاية في الجدال ■ فاستغل الحسن بن الصباح مقدرة دعاة
غيبث بهم إلى علماء وفقهاء أهل السنة والشيعة الإمامية والزيدية
لمناظرتهم أمام الجماهير ■ وكان غرضه من ذلك كله تشكيك
الجماهير فيما هم عليه من عقائد مذهبية فيسهل بعد ذلك جذبهم
إلى مذهبه الإسماعيلي ، ثم السخرية بعلم العلماء والفقهاء وانتقاص
قدرهم أمام الناس الذين اعتادوا احترامهم لعلهم وأخذ أمور
دينهم عنهم ■ فترتب على ذلك أن قام عدد كبير من علماء أهل

السنة والجماعة والشيعة الإمامية والزيدية بوضع كتب خاصة في الطعن على معتقدات الاسماعيلية دون أن يجرأوا على مناظرة دعاة الاسماعيلية ، فالإمام الفزالي وابن رزام وابن نصر الشافعي وغيرهم من العلماء لهم كتب في الطعن على الاسماعيلية ، فاضطر الاسماعيلية إلى وضع كتب في الرد على هؤلاء العلماء ، والحق أن هذه المجادلات والمناظرات مع الاسماعيلية لم تكن جديدة على عهد ابن الصباح ، بل كانت قديمة عرفها الاسماعيلية ودعاتهم قبل أن يظهر المهدي بالمغرب .

ولكن ابن الصباح استغل هذه التقاليد الاسماعيلية القديمة في حروبه ضد أعداء مذهبه حرباً هي أقرب شيء إلى ما نراه اليوم بين الدول من حرب باردة قوامها الدعاية والتسابق العلمي . عاش ابن الصباح متصوفاً زاهداً متعبداً ، فكان مثالا للرجل المنصرف إلى العبادة مع ما كان عليه من رغبة في سفك الدماء وقتل كل من يخالفه . وامتدت به الحياة وكلها ملوثة بدماء من أمر باغتيالهم . ويظهر أنه في أيامه الأخيرة قد بلغ به أمر شرارته لسفك الدماء مبلغاً كبيراً لدرجة أنه قتل ولديه ، وادعى أمام أتباعه أنه قتلها غيرة على الدين والعقيدة ، ذهب إلى أنه قتل ابنه الأكبر لأنه اشترك مع آخرين في قتل شيخ مشايخ قوهستان ، وقتل ابنه الثاني لأنه شرب الخمر ، والعقيدة الاسماعيلية تتشدد في تحريم الخمر كما نص القرآن الكريم . ثم نرى ابن الصباح يهجر زوجته وينقطع إلى

وخذته ، غير أنه لا وجد أنه ليس له وريث من عقبه يخلفه في حكم
 الاسماعيلية استدعى إليه في آلموت اثنين من أشد الناس إخلاصاً
 له ولدعوته وهما كيا بزرگ وأبو علي داعي الدعوة في قزوین ، وجعل
 وصيته إليهما من بعده أن يتولى أحدهما الزعامة الروحية للدعوة
 ويتولى الثاني الأمور الدنيوية وقيادة الفدائيين ، ففصل بذلك بين
 قيادة الدين وجعلها لأبي علي الداعي ، وبين قيادة الدنيا وجعلها
 لكيا بزرگ . وتوفي الحسن بن الصباح سنة ٥١٨ هـ وهو في
 نحو التسعين من عمره ، صرف منها زهاء سبعين عاماً وهو يجد
 ويكافح في تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية التي طبعها بهذا
 الطابع الذي عرفت به في التاريخ ، وجعل لها هذه الشهرة التاريخية
 عند الشرقيين والغربيين ، واستطاع أن يمتلك عدداً كبيراً من
 القلاع والحصون في فارس وأن ينشر دعوته بين عدد كبير من الناس .
 كان لموت الحسن بن الصباح صدى بعيد الأثر في علاقة
 الاسماعيلية بالسلاجوقيين ، الذين كانت تربطهم بابن الصباح معاهدة
 صلح ، فأراد السلاجوقيون أن ينتقموا لأنفسهم من الاسماعيلية
 بعد موت زعيمهم ومؤسس دولتهم في فارس ، وخيل إلى
 السلاجوقيين أنه من السهل عليهم أن يبيدوا الاسماعيلية وأن يقضوا
 عليها قضاء تاماً ، فبدأوا بحربهم بعد أن جمعوا حولهم الناقين
 على الاسماعيلية ، واستمرت الحرب ولكنها كانت سجالات بين
 الطائفتين المتحاربتين ، غير أن الاسماعيلية أكثروا من القتل والنهب

وكانت غاراتهم على القرى والبلدان القريبة من حصونهم وسلب كل ما كانوا يجدونه في طريقهم حتى ضج الناس منهم ، الأمر الذي أدى بالملك سنجر إلى أن يحاول محاربة الاسماعيليين في قلعة آلموت نفسها سنة ٥٢١ هـ ، فهاجمهم واستطاع أن يقتل منهم عدداً كبيراً قدر بنحو عشرة آلاف شخص ، ولكنه لم يستطع أن يستولى على القلعة . وانتقم الاسمائيون لهذه المذبحة انتقاماً مرعباً حقاً ، إذ فتكوا بكل من استطاعوا اغتياله من أعدائهم كباراً وصغاراً ، ومرت السنون وهم يقتلون وينهبون ، حتى امتدت أيديهم بالخناجر إلى الخليفة العباسي في بغداد فقتلوه . وفرضوا الضرائب على البلاد التي يجوار قلاعهم ، كما فرضوا الضرائب على قوافل التجارة بحجة حمايتها ، والويل لكل من يرفض لهم طلباً . فكان مصيره القتل ونهب أمواله ، فأوقعوا العرب في نفوس الناس الذين اضطروا إلى الخضوع لأوامرهم وتلبية طلباتهم .

في ظل هذه الدولة التي أسسها الحسن بن الصباح عاش أئمة الاسمائيين من نسل نزار بن المستنصر الفاطمي ، هكذا قال الاسمائيون الشرقيون ، غير أن هؤلاء الأئمة كانوا في ستر تام . فلم يعرف أحد عنهم شيئاً ، ولم يذكر المؤرخون أسماءهم ، بل لم يشر إليهم أحد . وكان الذين يحكمون طائفة الاسمائيين من آلموت يقولون عن أنفسهم إنهم دعاة الإمام . وقرأ عن الحسن

الثاني بن محمد الذي تولى الأمر بالموت سنة ٥٥٨ هـ أنه يذيع بين الطائفة الاسماعيلية أنه تلقى رسالة من الإمام جاء فيها « إن الحسن ابن محمد بن كيازر كإنما هو خليفتنا وداعيتنا وحجتنا » فملى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه في الأمور الأخروية والدنيوية وأن يأتمروا بأوامره . ويعتبروا كلامه من وحى الله وأن لا يخالفوا له أمراً . بل يتقيدوا بها ويعملوا بها كما لو كانت من لدنا .

وبعد أن قرئ هذا السجل على الناس بالسجدة ، خطبهم الحسن الثاني وأمرهم بطرح جميع التكاليف الدينية . والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه . وهو الذي يتحمل بدلم الحساب يوم القيامة ، إن أطاعوه إطاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو . وبذلك دخلت الدعوة الاسماعيلية الشرقية في دور جديد من أدوار عقائد هذه الطائفة وتقاليدها ، وهو دور عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج . . . الخ ، وعدم التقيد بما كان عند الاسماعيلية في دور الظهور الأول أو في العصر الفاطمي من الاعتقاد بالظاهر والباطن أى العبادة العملية والعبادة العلمية . وقد قبل الاسماعيلية الشرقية هذه الآراء الجديدة لأن الإمام أمرهم بطاعة الحسن بن محمد بن كيازر ، ثم لأن النفس البشرية ترحب دائماً بما يحورها من قيود التقاليد والأحكام الدينية كانت

أم غير دينية ، وثالثاً لأن الإمام سيتحمل الحساب عنهم يوم
القيامة . لهذا رجب الاسماعيلية بهذه الآراء الجديدة التي أذاعها
الحسن بن محمد بن كيا بزرگ سنة ٥٥٨ هـ . ثم رأى الحسن هذا
يتخذ خطوة أخرى في ١٧ رمضان سنة ٥٥٩ هـ ، إذ أعلن
الحسن هذا نفسه بأنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر بالله
الفاطمي ، وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً بقولهم : « على ذكره
السلام » وبذلك أصبح حكام الموت من الحسن الثاني (على ذكره
السلام) والذين جاءوا بعده من سلسلة النسب الفاطمية ، فازداد
الناس حوله التفافاً ، وفرحاً بظهوره بعد الستر وطاعة له لأنه
المستول عنهم أمام الله . فطاعة الإمام الآن أوجب من أي
وقت مضى في تاريخهم . على أن الحسن الثالث جلال الدين
— حفيد الحسن الثاني — الذي تولى الأمر سنة ٦٠٧ هـ أمر
بإعادة القيام بالفرائض الدينية كما كانت قبل ظهور جده ، وأمر
ببناء المساجد وإقامة الأذان للصلاة وقرب إليه الفقهاء والقراء
وأغدق عليهم الهدايا والأموال ، بل خطا خطوات أوسع من
ذلك ، إذ راسل الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، وأرسل إلى
السلطان السلجوقي وخوارزم شاه وإلى غيرهما من الملوك والأمراء
بأن يؤكد لهم صدق عودته إلى التعاليم الإسلامية والقيام بشعائر الدين
وفرائضه ، ففرحت بذلك البلاد الإسلامية ، وأخذ كل ملك يخلع
على الحسن الثالث الألقاب ، ومن هذه الألقاب « المسلم الجديد » ،

ويظهر أن فرح المسلمين بعودته إلى التعاليم الإسلامية كان له أثره في نفس الحسن الثالث ، إذ غالى في إظهار رجوعه إلى الحق فانهز فرصة زيارة بعض وفود المسلمين له فأحرق أمامهم كتب الحسن ابن الصباح وكتب الاسماعيليه السريه . وطمع في الحسن بن الصباح وكل من تولى أمر الاسماعيليه بعده ورماهم جميعا بالكفر والإلحاد ، ثم بث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج ، وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة المكرمة برسم الفقراء من المسلمين وخاصة للمتصوفة ، وعقد معاهدات الصلح والتحالف مع أعدائه من الملوك ، وبذلك كله اقتنع المسلمون بأنه أعاد الاسماعيليه إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التي مزقتها الفرق المختلفة . ولنا أن نتساءل عن السبب الذي من أجله خالف الحسن الثالث عن رأى أبيه وجده . هناك رأى يقول إن الحسن الثالث جلال الدين كثيرا ما كان يعلن استنكاره الشديد لسياسية أبيه وجده في حياة أبيه ، وكثيرا ما قامت المناقشات العنيفة بينه وبين أبيه بسبب العقيدة الدينية ، وأن هذه المناقشات خرجت أحيانا إلى طور السباب وكيل التهم ، حتى إن أباهم بأن يخلمه عن ولاية العهد في أخريات أيامه لولا أنه مات قبل أن يتمكن من ذلك ، فلما تولى الحسن الثالث الأمر أعاد الفرائض والشرائع إلى ما كانت عليه . وربما أستطيع أن أضيف إلى هذا الرأى أن الطائفة الاسماعيليه خسرت في العالم الإسلامى أجمع الهيبة والاحترام .

فالحكام الذين تولوا أمر الاسماعيلية قبل الحسن الثاني ، سواء
أكانوا في دور الظهور الأول بالمغرب أو في مصر الفاطمية
بالقاهرة أو عصر آلموت ، كانوا يذيعون أنهم يدافعون عن الدين
وعن فرائضه ، وكان أعدائهم يرمونهم بالزيغ عن الدين « فينبى
الدعاة لدخض هذه الأقاويل ويثبتون للناس أن الأئمة الاسماعيلية
إنما يعملون على تثبيت قواعد الدين التي أتى بها جدهم محمد عليه
الصلاة والسلام ، أسوة بما فعله أبوهم علي بن أبي طالب ، فلما
أظهر الحسن الثاني آراءه الجديدة بطرح الفرائض وعدم إقامة
الشعائر فظن المسلمون إلى أن الاسماعيلية أذعياء في دفاعهم عن
الدين وأنهم يستحقون لقب الباطنية ، لأنهم يظهرون غير
ما يظنون » فأراد جلال الدين أن يستعيد ثقة المسلمين في
الاسماعيلية ، ويتقرب بذلك إلى ملوك المسلمين ليعترفوا به ويخلصوا
عليه الألقاب التي تورع أسلافه عنها « ونستطيع أن نقارن حالة
الاسماعيلية الشرقية هذه بجماعة اليسوعيين الذين أحسّوا بفضب
البابا ورغبته في حل منظماتهم ، وشعروا بسخط الحكومات
المختلفة على سياستهم » فاضطروا إلى العودة إلى طاعة البابا والتنكر
لآرائهم التي ساروا عليها واتبعوا التقاليد الكاثوليكية فماد إليهم
نفوذهم وهيبتهم . كذلك كان الأمر مع الاسماعيلية الشرقية في
عهد جلال الدين الحسن الثالث . ولكن الحسن الثالث لم يمر
طويلا إذ طعنه أحد الفدائيين الذين رأوه يخرج على تعاليم أبيه

وجده ■ وأراد التخلص من آرائه الدينية ، ومن الشرائع التي طلب من أتباعه أن يعودوا إليها بعد أن تحرروا منها ، ومن مهادة الخصوم ، ومضامنة الخليفة العباسي ببغداد ، وهي كلها أمور أغضبت بعض أتباعه فتآمروا على قتله ، وبذلك رجع الاسماعيلية الشرقية يعد موته إلى آراء أبيه وجده ، وسار أصحاب آلموت على هذه السياسة في الناحية الدينية ، وعلى إيفاد الفدائيين إلى الأمراء والملوك لاغتيالهم ؛ حتى ظهرت جيوش المغول في آسيا واجتاحت القلاع والحصون التي في طريقها ، وكانت قلاع الاسماعيلية مما اجتاحته جيوش المغول . وفي سنة ٦٥١ هـ (١٢٥٤ م) خرج هولاكو بجيشه لغزو حصون الاسماعيلية ، وأرسل إلى ملوك المسلمين المجاورين لقلاع الاسماعيلية سجلا جاء فيه :

« نحن إنما حضرنا بأمر الخان لندك حصون الملاحدة ■ فإذا رأيتم أن تحضروا بأنفسكم إلينا ، وتلحقوا عساكركم بعساكرنا ، فإننا سنحفظ عليكم بلادكم ، وسنموض عليكم معاوتكم هذه بالإنعامات اللسكية ، أما إذا ترددتم وتمنتم فإني سأقض عليكم فور انتهائي من أمر هذه الطائفة الضالة الاسماعيلية ■ . ومن الطبيعي أن يستجيب ملوك المسلمين المجاورين للاسماعيلية لنداء هولاكو إما خوفاً من بطشه وتهديداته وإثما رغبة منهم للتخلص من الفدائيين الاسماعيلية ، وهكذا سارت

جموع المغول ومعهم جيوش من المسلمين لمحاربة الاسماعيلية في
 حصونهم . وسرعان ما أذعن ركن الدين خورشاه إمام الاسماعيلية
 للقائد هولاكو الذي دخل قلعة آلموت سنة ٦٥٤ هـ . كما استولى
 على جميع قلاع وحصون الاسماعيلية ، وكانت تبلغ الأربعين
 حصناً ، دكت كلها إلى الأرض بعد أن هرب منها سكانها تاركين
 خزائهم وكنوزهم نهباً لجيش هولاكو المغولي ، ثم أخذ المغول
 بعد ذلك في تتبع الاسماعيلية فكانوا يقتلون كل اسماعيلي يقابلونه .
 حتى لم ينج من الاسماعيلية سوى الأطفال ، وشردوا في البلاد
 مصطنعين التقية والستر خيفة الوقوع في أيدي المغول وحفظاً على
 حياتهم . وقتل ركن الدين خورشاه آخر الأئمة الاسماعيلية النزارية
 في آلموت ، ولكنه قبل مقتله استطاع أن يخفي ابنه شمس الدين
 محمد فهرب هذا متنكراً إلى جهة ما بجنوب القوقاز حيث عاش
 هو وخلفاؤه مستترين متنكرين على هيئة تجار وأصحاب أراضي
 زراعية ، ثم انتقلوا من مكانهم إلى قرية كبيرة اسمها « انجودا »
 وهي تقع على الطريق القديم الذي يصل بين إصفهان وهمدان ،
 أي على بعد حوالي عشرين ميلاً من مدينة أراك الحالية ، وهناك في
 هذه القرية قضى شمس الدين محمد بن ركن الدين خورشاه بقية
 حياته إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة .
 وقد واجهت الطائفة الاسماعيلية الشرقية أزمة عنيفة بسبب
 النزاع على تولي الإمامة بعد شمس الدين محمد ، ففريق من الاسماعيلية

المشردين نادوا بإمامة محمد شاه ، واعترفوا به وإمامة الأئمة من
نسله حتى انقطعت سلسلة الأئمة من نسله في منتصف القرون
العاشر الهجرى .

وآخر إمام من أئمة هذا الفرع هو طاهر شاه الثالث المعروف
بالدكنى الذى هاجر إلى الهند وتوفى هناك حوالى سنة ٩٥٠ هـ ،
وعوته انقطع هذا الفرع بالرغم من وجود أتباع له إلى الآن ،
وخاصة فى مصياف والقدموس بسورية ، وهم أى اسماعيلية مصياف
والقدموس الآن فى حيرة من أمر الإمام الذى يتبعونه من نسل
طاهر شاه دكنى هذا ، وأرى من الحق على أن أذكر أن
اسماعيلية مصياف والقدموس لا يفترون عن إخوانهم المسلمين
فى جميع بلاد العالم فى شىء . فهم يتسابقون فى إقامة فرائض الدين
وشعائره أسوة بإخوانهم المسلمين ، ويحفظون القرآن الكريم
ويعملون بهديه ، ويقتدون بسنة الرسول الكريم ويحفظون
أحاديثه ، بل هم متعصبون للإسلام والعروبة . ولا خلاف بينهم
وبين أهل السنة إلا أنهم يسمون أنفسهم الاسماعيلية .

أما الفرع الثانى من الطائفة الاسماعيلية الشرقية فقد اعتقدوا
إمامة قاسم شاه ، وهؤلاء هم العدد الأكبر من هذه الطائفة .
وهنا يجب أن أشير إلى أن الاسماعيلية الشرقية اضطرت إلى
الهجرة من حصونها وقلاعها . اضطراباً أمام ما حل بهم من
أهوال ومذابح على نحو ما ذكرناه . وكانت هذه الهجرة إلى إقليم

بادخشان (أعلى نهر جيحون) وإلى الهند على وجه الخصوص .
والهند كانت دائماً مأوى اللاجئين من الفرس ، لجأ إليها عدد من
الزردشتيين عندما قامت جيوش العرب باجتياح بلاد فارس ،
وكون الزردشتيون في الهند جالية لا تزال إلى يومنا هذا يحافظون
على تقاليدهم وشعائرهم الدينية ، وهم يعرفون الآن بالبارسيين .
وهذا ما حدث أيضاً للاسماعيلية الشرقية عندما وقعت أملاكهم
فريسة في أيدي المغول وخافوا على أنفسهم القتل فاتجهوا إلى
الهجرة إلى الهند ، وفي الهند كان يوجد عدد من الاسماعيلية ،
اعتنقوا المذهب على أيدي دعاة اليمن « واستطاعوا أن يؤسسوا
لأنفسهم جاليات اسماعيلية اتخذت مدينة مُلتان مركزاً لها ،
وكان للاسماعيلية الهندية من السيطرة على إقليم السند كله ،
وظلوا كذلك مدة طويلة دون أن يكونوا لأنفسهم دولة أو إمارة
هناك ، بل اكتفوا بما لهم من نفوذ وتأثير على ملوك الإقليم
وأمرائه وما لهم من سيطرة اقتصادية في البلاد ، حتى قام محمد
الغوري بجيش قوامه من الأفغانيين والآثراك بغزو بلاد الهند ،
فانتصر على أمراء راجبوت في موقعة ثانیسار سنة ٥٧١ هـ ■
وامتدت فتوحاته إلى أن احتل أجير ودلهي وبنارس ، فخضع له
وادی نهر الكنج كله حتى إقليم البنغال ، وأسس في الهند حكماً
إسلامياً ونشر الدين الإسلامي في الهند ، كانت هذه الفتوحات
القورية في الهند ذات أثر كبير على الاسماعيلية هناك ، إذ قام

الفوري بالبحث عن الاسماعيلية وقتلهم ، فاضطر الاسماعيلية إلى
 التقية وشردوا داخل بلاد الهند الواسعة ، وتنكروا في زي
 الهندوكيين ، وبعد هذه المذبحة بمائة عام تقريباً ، وفدت على الهند
 موجات الاسماعيلية المهاجرين الذين فروا من المغول . وبطبيعة
 الحال اتصل زعماء المهاجرين بالاسماعيلية في الهند الذين كانوا
 متأثرين بالمقائد والتقاليد الهندوكية ، فكان من نتيجة هذا
 الاتصال أن كوّن الاسماعيلية الشرقية في الهند عقائد جديدة هي
 مزيج من عقائد الاسماعيلية والمقائد الهندوكية والتصوف الفارسي
 والهندي . وهنا يجب أن أشير إلى حقيقة هامة . وهي أن عدداً
 كبيراً من شيوخ التصوفة في فارس والهند الذين يطلق عليهم
 لقب (پير) كانوا مستقلين استقلالاً ذاتياً — إن صح هذا
 التعبير — لكل منهم منهجة وطريقته الصوفية . ومع ذلك كله
 كانوا متأثرين جميعاً تأثراً تاماً بمقائد الاسماعيلية ، بل منهم من كان
 تحت سلطان الأئمة الاسماعيلية . وحدث أن انشق فريق من هؤلاء
 المتصوفة الاسماعيلية بزعامه إمام شاه في بداية القرن السادس
 الهجري ، وكونوا طائفة جديدة لا تزال تعرف إلى اليوم باسم
 طائفة السائبانت أي طائفة طريق الخور ، ولا يزال أتباع هذه
 الطائفة يعيشون إلى اليوم في ولاية جوجرات وفي خندش بالهند ،
 وهم يذهبون إلى أن شمس التبريزي وجلال الدين الرومي الصوفيين
 المعروفين كانا من زعماء مذهبهم ولذلك يرددون أشعارهما بعد أن

ترجت إلى اللغة الجوزائية . أما بقية الاسماعيلية الشرقية في الهند فاستمروا على ولائهم لإمامة الأئمة من نسل قاسم شاه ، وتفرقوا في أنحاء الهند ، ولم يبق في ملتان والمدن التي تجاورها سوى عدد قليل احترفوا صياغة المذهب ومهروا في هذه الصناعة حتى عرفوا « بالسنار » أي الصاغة .

أما في أقاليم الهند الأخرى فقد اشتغل الاسماعيلية الشرقية بالتجارة مثل الاسماعيلية البهرة ، ولذلك تفرقوا في المراكز التجارية الهامة في آسيا ومنها إلى إفريقية الشرقية والجنوبية ، ولا سيما في عهد إمامهم محمد الحسيني أغا خاں المتوفى في أغسطس سنة ١٩٥٧ م الذي سنتحدث عنه في فصل خاص .

حكام وأئمة الاسماعيلية الشرقية في آلوت

- ١ - الحسن بن الصباح : توفى سنة ١١٢٤ م .
- ٢ - كيا بزرك أميد : توفى سنة ١١٣٨ م .
- ٣ - محمد بن كيا بزرك أميد : توفى سنة ١١٦٢ م .
- ٤ - الحسن الثاني بن محمد : توفى سنة ١١٦٦ م .
- ٥ - محمد الثاني بن الحسن الثاني : توفى سنة ١٢١٠ م .
- ٦ - الحسن الثالث بن محمد الثاني : توفى سنة ١٢٢١ م .
- ٧ - محمد الثالث بن الحسن الثالث : توفى سنة ١٢٥٥ م .
- ٨ - ركن الدين خورشاه : توفى سنة ١٢٥٥ م .

الفصل الخامس

الاسماعيلية النزارية في الشام

في حديثنا عن دور الستر ذكرنا أن الأئمة الاسماعيلية اتخذوا مدينة سلمية بجوار حصن بيلاد الشام مركزاً لدعوتهم السرية ومقراً لمقاتلتهم ، ومنها كانوا يبعثون الدعاة إلى مختلف البلاد . ومعنى هذا أن بلاد الشام عرفت الدعوة الاسماعيلية في وقت مبكر إذا قيست بالبلدان الأخرى . وفي الشام كانت حركات بعض القرامطة الذين كانوا من الاسماعيلية ثم خرجوا عليهم وحاربوهم ، فاضطر المهدي بالله صاحب دور الظهور إلى الهروب من بلاد الشام . ولما ملك الاسماعيلية (الفاطميون) مصر أرسلوا جيوشهم إلى بلاد الشام واستطاعوا الاستيلاء على جزء كبير منها ونشروا هناك الدعوة الاسماعيلية ، فأصبح للأئمة الاسماعيلية الفاطميين أتباع ومستجيبون في الشام ، وقد ذكرنا أن دعاة نأليه الحاكم بأمر الله استطاعوا تحويل بعض القبائل التي كانت تدين بمقيدة الاسماعيلية إلى عقيدة نأليه وهم المعروفون بالدروز . وعلى إثر فرار الحسن بن الصباح من مصر إلى بلاد فارس مر ببلاد الشام وأقام مدة في مدينة حلب حيث دعا إلى المذهب الاسماعيلي . وأخذت الآراء

والمقائد الاسماعيلية تقوى وتنتشر في بلاد الشام كلها وانت
 للاسماعيلية فرصة لذلك . أو كانت تضعف أمام قوة الأمراء
 والحكام وخاصة أيام سلاجقة العراق والشام . ثم ظهرت حركة
 الصليبيين ونجحت هذه الحركة في تأسيس إمارات صليبية في بلاد
 الشام . ويرجع العامل الأول في نجاح الصليبيين إلى الخلاف الذي
 كان بين أمراء المسلمين وعدم وقوفهم جبهة واحدة أمام الخطر
 الصليبي .

كانت بلاد الشام منقسمة إلى إمارات صغيرة متنازعة فيما بينها
 متشاحنة متباغضة بسبب مطامع الأمراء وأحقادهم ، الأمر الذي
 سهل على الصليبيين المستعمرين أن يتالوا النصر تلو النصر في
 سهولة ويسر ، حتى أشيع أن الصليبيين لا يقهرون . تخافهم
 الأمراء . بل استعان بهم بعض الأمراء المسلمين ضد أعدائهم .
 كان الأمير رضوان أميراً على حلب . وكان أخوه دقاق أميراً
 على دمشق وصهره (زوج ابنته) جناح الدولة أميراً على حمص ،
 وكانوا جميعاً ولاية من قبل السلجوقيين ، وحدث أن وفد على حلب
 شخص يعرف بالحكيم النجم أسعد ، استطاع في شيء من الدهاء
 أن يتصل بالأمير رضوان وأن يستحوذ بلبه ويسطر عليه ، بحيث
 أصبح رضوان العوبة بين يديه ، ووسوس الحكيم النجم أسعد إلى
 الأمير رضوان بأن أخاه وصهره يأتمران به ، وأنهما يجمعان الجيوش
 لاقتراع حلب منه . وزيّن له أن يستمد للملاقة جموعهما ووعده

الحكيم بمساعدة الاسماعيلية ، وفعلوا أرسل دعاة الاسماعيلية بالشام إلى الأمير رضوان يعدونه بكل مساعدة ممكنة ولقبوه بالسلطان . ففرّ ذلك منهم ، وربما ظن أنهم سيولونه الإمارة عليهم ، ولذلك بادر رضوان عملاً بنصيحة الحكيم النجم أسعد إلى بناء مسجد خاص بالاسماعيلية في حلب بعد أن كانوا يعيشون فيها في ذعر وخوف من بطش السلاجقة . وكثيراً ما أظهروا التقية سترًا على أنفسهم ، فلما رأى الاسماعيلية أن الأمير رضوان يحميمهم أظهروا أنفسهم وخرجوا من سترهم وأصبح لهم عليه دالة خاصة ، ولا سيما بعد أن اتضح أن عدداً كبيراً منهم كانوا يعملون في بلاط الأمير دون أن تُعرف إسماعيليتهم . ولما قوى نفوذ الاسماعيلية في حلب على هذا النحو وفد إليها من فارس جماعات عديدة من الاسماعيلية الذين فروا من السلجوقيين ، حتى زاد عدد الاسماعيلية في حلب وازدادوا قوة . حتى إن المؤرخ ابن الفرات قال : « وكثروا وصار لهم في حلب دار دعوة وعظم شأنهم ، وصار كل من يجنى جناية منهم ممنوعه وحرسوه وكاتبوا الملوك في أموره حتى يخلصوه ، فكثرت بذلك أتباعهم واشتهروا أمرهم واشتدت شوكتهم . وصار الرجل منهم يلقى الرجل من غيرهم فينزع عنه ثيابه ولا يقدر على الامتناع منه ولا يجد ناصراً ، ويلقى أحدهم المرأة والصبي في الطريق فيقبض عليه ويذهب به إلى شاء ولا يقدر أحد على استخلاصه » . ومهما يكن من مبالغة المؤرخ

ابن الفرات في وصف ما كان يأتيه الاسماعيلية في حلب فيكفي أن نعرف أنهم كثروا في حلب ، كما انضم إليهم خلق من جبل السماق ومعرة النعمان والبقاع المجاورة . ومع هذه الجموع الاسماعيلية التي أظهرت استعدادها لمساعدة رضوان ضد أخيه دقاق وصهره جناح الدولة فإن جيش رضوان منى بالهزيمة وهرب رضوان كما هرب الحكيم النجم أسعد ، فانتقم الاسماعيلية لهذه الهزيمة بأن اغتالوا جناح الدولة بالمسجد الجامع سنة ٤٩٦ هـ ، فكان أول ضحية للفدائيين الاسماعيلية في بلاد الشام ، وطاد رضوان إلى حلب والناس في سخط عليه ، حتى إن قاضي المدينة أغلظ له القول لحمايته للاسماعيلية واعتماده عليهم ، فكان جزاء القاضي أن اغتاله الاسماعيلية دون أن يستطيع أحد أن يمسك بالقاتل .

ثم وفد على بلاط رضوان بحلب أبو طاهر الفارس سفيرا من قبل شيخ الجبل بآلموت ، فتجمع حوله إسماعيلية المدينة ، ويظهر أنه كان مكلفا للقيام بعمل ما ، إذ ظل هذا الداعي يترقب الفرصة الملائمة ليقوم بأداء مهمته في الشام ، ولا سيما في هذا الوقت الذي كان فيه الصليبيون يهددون الإدارات الإسلامية ، ويخضعون لهم البلد تلو الآخر ويفرضون على الأمراء المسلمين الأتاوات ، أخذ أبو طاهر الفارس يراقب الأحداث عن كثب إلى أن انتهاز فرصة انزع فيها حصن قاميه من أيدي الصليبيين سنة ٥٠٠ هـ . وجعل عليه الداعي أبا الفتح الذي كان يتولى أيضا

حصن سرمين بجوار حلب ، ولكن في سنة ٥٠٤ هـ استطاع الصليبيون أن يستعيدوا حصن قاميه وقتلوا واليها أبا الفتح الداعي . وبمض رجاله ، وحاف الداعي أبو طاهر الفارسي فهرب من حلب إلى آلوت استعداداً لتدبير مخاطر أخرى يقوم بها الاسماعيليه في الشام . سمع الأمير رضوان بهزيمة الاسماعيليه أمام الصليبيين ، وكان يدرك مدى سحق الناس عليه لمآلاتهم ومشاركتهم في القتل والاغتيال ، فتشجع بعد هزيمتهم وأراد أن يظهر براءته منهم ، فعمد إلى قتل عدد كبير منهم ، وطرده من حلب عدد آخر ، ولكنه ظل يستخدمهم في أغراضه وبستمين بهم في أموره على نحو ما حدثنا به المؤرخ ابن الفرات ، ثم بلغ رضوان أن الاسماعيليه يريدون اغتياله وانتزاع قلعة حلب من يديه ، فأدرك خطرهم وبدأ في اضطهادهم ولكنه توفي سنة ٥٠٧ هـ . فكان موته ابتداء مذابح عديدة قاسية ذهبت فيها أرواح عدد كبير من الاسماعيليه . منهم أبو الفتح بن أبي طاهر الفارسي الذي قتلته الجماهير ومثلوا بجثته أشنع تمثيل وطاقوا برأسه في المدينة ، وهرب الداعي ابن دملج إلى الرقة حيث وافته منيته ، وفر الداعي ابراهيم إلى قلعة شيزر ، وأخذ أهالي حلب بالحنة . فن كان اسماعيليا قتل حتى اضطر عدد منهم إلى الخروج من البلاد ، وكثرت الوشايات بينهم حتى لم يبق في حلب اسماعيلي واحد يظهر مذهبه . وقد اتقم الاسماعيليه من ابن بديع الذي كان ينوب في الحكم في حلب .

كان أكثر اسماعيلية حلب الذين هربوا في هذه المحنة يلتجئون إلى شيزر حيث هرب الداعي إبراهيم ، ويظهر أنهم بعد تجمعهم في شيزر أرادوا الاستيلاء على قلعها غير أنهم فشلوا فطردوا من المدينة بعد أن قتل منهم عدد كبير . وعاد بعضهم إلى حلب بزعامة الداعي أبي محمد الذي كانت تربطه بالأمير ايلغازي صاحب ماردين لون من ألوان الصداقة ، فأرسل الداعي إلى صديقه يطلب منه السماح للاسماعيلية بالنزول في قلعة الشريق ، فسمح لهم بذلك ، ثم استعاد الاسماعيلية قوتهم ، وأخذت فرق القدائين تقوم بما عهد إليها من قتل واغتيال على نطاق واسع ، ففي سنة ٥٢٠ هـ اغتيل قسيم الدولة آن سنقر صاحب الموصل وهو في المسجد الجامع . وزادت قوة الاسماعيلية في الشام حينما وفد عليها الداعي بهرام الاستراباذي الفارسي واستطاع أن يتصل بالأمير طغتكين صاحب دمشق . وأن يتفق مع هذا الأمير على أن يتنازل للاسماعيلية عن قلعة بانياس (جنوب غربي دمشق) وبذلك تحقق حلم الاسماعيلية في الشام بامتلاك قلعة منيعة يثبون منها إلى غيرها من القلاع والحصون . ففي قلعة بانياس استطاع بهرام أن يجهر بدعوته الاسماعيلية النزارية . وأن يأخذ العهد على المستجيبين الذين كثروا حوله . وحاول أن يتوسع في امتلاك القرى والبلاد المجاورة له . غير أن الدروز باغتوا الاسماعيلية سنة ٥٣٢ هـ للأخذ بثأر أحد الدروز قتله الاسماعيلية ، ففر عدد من الاسماعيلية أمام

الدروز وقتل الداعي بهرام بعد أن عهد إلى الداعي إسماعيل الفارسي ليتولى شئون الطائفة من بعده في قلعة بانياس ، وكان إسماعيل الفارسي داهية في سياسته ، ذا قدرة فائقة للتأثير على الناس ، فاقاد له عدد كبير منهم ، واستطاع بلباقته أن يتجنب إلى الأمراء ورجال الحكم فاستجابوا لمطالبه ، وكان الرديفاني وزير دمشق أحد الذين خضعوا لسيطرة الداعي الإسماعيلي « حتى إن هذا الداعي استطاع أن يولي أحد أتباعه « وهو الداعي أبو الوفاء — وظيفة قاضي قضاء دمشق « ولم تكن تولية أبي الوفاء على قضاء دمشق إلا حلقة من سلسلة تديرات خاصة للوصول إلى فرض سلطان الاسماعيلية في دمشق وفي غيرها من البلاد « ولو تم ذلك بمخالفة الصليبيين ، ضد السلجوقيين « فيحدثنا المؤرخون أمثال ابن القلانسي وابن الفرات وابن الأثير وأبي الفداء ، أن أبا الوفاء هذا بعث سرا إلى بودان الثاني ملك بيت المقدس يفاوضه في تسليم دمشق إلى الصليبيين مقابل أن يستولي الاسماعيلية على مدينة صور « وقبل ملك بيت المقدس ذلك على أن يكون تسليم دمشق في يوم الجمعة إذ يكون الأمير بوري بن طنتكين صاحب دمشق وحاشيته يؤدون الصلاة « فينتهز قاضي القضاء هذه الفرصة فيفتح أبواب دمشق للصليبيين بعد أن يسد جميع منافذ البلد . غير أن الأمير بوري فطن إلى هذه المؤامرة ، فأسرع إلى قتل وزيره الرديفاني « وتبع الاسماعيلية في دمشق « فذبح منهم حوالي ستمائة

شخص ، وجاء الصليبيون بمحش كثيف لأخذ المدينة ولكن
الله ردهم عنها ، فبادوا أدرأجهم سنة ٥٢٤ هـ ، ومن الطريف أن
الصليبيين الذين لم يستطيعوا الاستيلاء على دمشق تنفيذاً لأوامرهم
على الاسماعيليه ، عرجوا في عودتهم على قلعة بانياس التي كانت
في أيدي الاسماعيليه واستولوا عليها ، ولم يستردها الاسماعيليه
ثانية إلا سنة ٥٢٧ هـ ، وبعد ذلك بقليل اشترى الاسماعيليه حصن
قدموس ، وبعد ثمان سنوات استولوا على حصن مصياف ، وبما
زالوا يشترى الحصون أو يستولون عليها حتى بلغ عدد حصونهم
الرئيسية في الشام في القرن السابع للهجرة ثمانية حصون هي القدموس
ومصياف وبانياس والكهف والخواوي والنيقة والقليلة والرسافة ،
وبجانب هذه الحصون الرئيسية الثمانية امتلكوا قلاعاً وحصوناً
أقل أهمية من هذه الحصون الرئيسية ، مما يدل على أن الاسماعيليه
استطاعوا برغم ما أصابهم من اضطهاد وتقتيل وتشريد أن
يؤسسوا لهم إمارات في بلاد الشام ، وازدادت قوة الاسماعيليه
بالشام بظهور شخصية فذة وداعية داهية في سياسته وفي مواهبه
وحكمته وهو « راشد لدين سنان » الذي استطاع بمقدرته وكفايته
أن يجمع كل إسماعيلية الشام حوله ، وأن يجعل منهم قوة متحدة
لهم نفوذ وسلطان مثل ما فعله الحسن بن الصباح في فارس ، ابل
جعل لنفسه مذهباً جديداً دعا إليه غير ما كان عليه إسماعيلية الشام
من قبل ، فقد كان الاسماعيليه في الشام يدينون بإمامة أصحاب

قلعة الموت في فارس ، فجاء سنان وكون مذهب « السنانية »
 واعترفوا بإمامته ، غير أنهم عادوا بعد سوتة إلى طاعة الأئمة
 بالموت ، وبالرغم من تحولهم هذا فإن اسماعيلية الشام إلى الآن
 يذكرون الإمام راشد الدين على أنه أعظم شخصياتهم على
 الإطلاق .

راشد الدين سنان :

عرفه جمهور أهل الشام بلقب « شيخ الجبل » إماماً في
 احترامه ورهبة منه في الوقت نفسه ، هو أبو الحسن سنان بن
 سليمان بن محمد ، ولد في قرية صغيرة من قرى البصرة . ويقال إن
 سكان هذه القرية كانوا على مذهب النصيرية الذين يؤمنون على بن
 أبي طالب ، ولكن أسرة سنان لم تكن على هذه العقيدة ، بل
 كانت على مذهب الشيعة الاثني عشرية ، ولما شب تحول هو إلى
 مذهب الاسماعيلية على يد داعي دعوة العراق ، الذي لمس فيه مخائل
 النجاسة والذكاء فحب إليه الرحيل إلى الموت ليتلقى هناك علوم
 الدعوة الاسماعيلية ، وكان صاحب الموت إذ ذاك هو محمد بن
 كيازرك أمير الذي أحسن استقبال سنان وجعله مع ولديه في
 طلب العلم ، بل اتخذوه ربيباً له بعد ذلك بقليل . فتوطدت صلة
 سنان بولي العهد الحسن بن محمد ، فلما تولى الحسن (على ذكره
 السلام) أمور الطائفة بالموت أمر سناناً بالرحيل إلى الشام

ليشرف بنفسه على شئون الطائفة ، وليبث الآراء الجديدة التي
 نادى بها الحسن وطلب من الاسماعيلية اتباعها ، ويخيل إلى أن
 الحسن (على ذكره السلام) كان يخشى ثورة اسماعيلية الشام
 ضد هذه الآراء والتعاليم الجديدة ، فأوفد إليهم الرجل الذي يركن
 إليه أكثر من أى شخص آخر لما لسه من خصاله وذكائه .
 وفد سنان إلى الشام سنة ٥٥٨ هـ في زى الفقراء الصوفية حتى
 لا يعرفه أحد ، وكان وهو في طريقه إلى الشام يتجنب المرور
 بالمدن الكبرى أو السير في الطرق المسلوكة خوفاً من أن يكتشف
 شخصيته أحد . فأعاد إلينا ذكر رحلة الداعى الشهير المؤيد في
 الدين هبة الله الشيرازي عند ما هرب من العباسيين إلى مصر
 سنة ٤٣٧ هـ . ووصل سنان إلى حلب ولكنه لم يستطع أن
 يمكث بها ، فغادرها إلى مكان آخر يأمن فيه على نفسه ويستطيع
 فيه أن يؤدي مهمته . فسار إلى قلعة الكهف واتخذها مقراً له ،
 وهناك واصل قراءة كتب العقائد والفلسفة التي شغف بها شغفاً
 عظيماً ، وفي نفس الوقت كان يدرس أحوال طائفته وأحوال غيرهم
 من المسلمين في الشام وما كان من أمر جموع الصليبيين . ولا سيما
 في هذه السنوات التي ظهر فيها نور الدين محمود زنكي صاحب
 حلب . وحاول سنان أن يوحد الإمارات المتشachte المتباغضة في
 الشام ليواجه مجموعهم المتحدة قوى الصليبيين وقوى الاسماعيلية
 في الوقت نفسه ، وفي شمال سورية حيث الجبال كانت تسكن بعض

الطوائف وخاصة طائفة النصيرية ، وهي كلها طوائف تكره
الاسماعيلية وتنتهز الفرصة للاشتباك معهم ، لذلك كله لم يشأ سنان
أن يقوم بأى عمل فى الشام قبل أن يدرس ويفكر ، وطال به
الدرس والتفكير إلى أن اتضح له رأى الذى سيسير على هديه ،
راه ينتقل من قلعة الكهف إلى قلعة مصياف ويتخذها قاعدة له .
وضاعف تحصيناتها وزودها بالسلاح والعتاد ، وأرسل إليه
نور الدين زنكى الجيوش تلو الجيوش لمحاربته دون أن يحصل على
انتصار ما ، حتى عزم نور الدين على السير بنفسه على رأس جيش
لمحاربة سنان ، غير أنه توفى قبل أن يحقق ما رى إليه ، وترك
حلب وما والاها من البلدان إلى ولده الصالح إسماعيل الذى كان
صغير السن لا يعدو الثانية عشرة من عمره . وجاء صلاح الدين
يوسف بن أيوب وأراد أن ينهج سياسة أستاذه نور الدين فى
الإمارات الشامية فسار إلى حلب ، فاضطر صاحب حلب إلى أن
يستعين بعمدوه سنان الذى أسرع إلى تلبية نداءه وحاول الفدائيون
الاسماعيلية أن يقتلوا صلاح الدين ولكنه نجا من خناجرهم
مرتين ، ويقول ابن خلكان إن صلاح الدين أرسل إلى سنان
يتوعده ويهدده ، وأن سناناً أجاب على كتب صلاح الدين بما نقله
هنا بنصه لطرافته ، فقد بدأ سنان رسالته بالشعر لأنه كان ممن
يحبون قرض الشعر ؛ فهو يقول فى هذه الرسالة :

يا للرجال من أمر حال مفظمه ما ضر قط على سمي توقعه
يا ذا الذي بقراع السيف هددنا لا قام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام إلى البازي يهدده واستيقظت لأسود البر أضبعه
أضحى يسد فم الأفي بأصبغه يكفيه ما قد تلاقى منه أصبعه
إنا منحناك ثوباً للحياة فإن كنت الشكور والإسوف نخله

وقفنا على تفاصيله وجمله « وعلنا ما هددنا به من قوله وعمله ،
فيأله العجب من ذبابة تطن في أذن فيل ، وبموضة تمض في
التمائيل » ولقد قالها من قبلك قوم آخرون « فدمرناها عليهم
وما كان لهم من ناصرين » ، أولالحق تدحضون وللباطل
تنصرون ، « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » ، وأما
ما صدر من قولك في قطع رأسى « وقلمك لقلاعى من الجبال
الرواسى » فذلك أمانى كاذبة وخيالات غير صائبة ، فإن الجواهر
لا تزول بالأعراض كما أن الأرواح لا تضمحل بالأمراض ،
كم بين قوى وضعيف وذئب وشريف ، وإن عدنا إلى الظواهر
والمحسوسات وعدلنا عن البواطن والمقولات فلنا أسوة
برسول الله صلى الله وسلم في قوله « ما أودى نبى ما أوديت »
ولقد علمتم ما جرى على غترته وأهل بيته وشيعته ، والحال ما حال

والأمر ما زال ، والله الحمد في الأولى والآخرة . إذ نحن مظلومون
لا ظالمون . ومنصوبون لا غاصبون . وإذا جاء الحق زهق الباطل
« إن الباطن كان زهوقاً » . ولقد علمت ظاهر حالنا وكيفية
رجالنا وما يتمنونه من الفوت ويتقربون به إلى حياض الموت .
« قل فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » ، ولا يتمنونه أبداً بما قدمت
أيديهم والله عليم بالظالمين . « وفي أمثال العامة السائرة (أو للبط
تهددون بالشط) فهي للبلايا جلباباً وتدرع للرزايا أثواباً »
فلأظهروا عليك منك ، ولأفنينهم فيك عنك ، فتكون كالباحث
عن حتفه بظلفه والجادع ما رن أنفه بكفه ، وما ذلك على الله
بعزيز . فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالرصاد . ومن
حالك على اقتصاد ، واقرأ أول النحل وآخر صاد .

وعلى هذا النحو كثرت خطابات التهديد من الجانبين .
وأراد صلاح الدين أن يحارب سناناً فجرد جيشاً كثيفاً حاصر به
قلمة مصياف ، ولكنه رجع عنها دون أن يفتحها ، وذلك لأن
أحد عمومته طلب منه عدم التمرض للاسماعيلية حتى يتفرغ لحرب
الصليبيين . ويقال إن صلاح الدين استيقظ ذات صباح وهو في
معسكره فوجد خنجراً على فراشه ومعه بطاقة من سنان تدل على
أن سناناً نفسه هو الذي زاره ووضع له الخنجر . ولو شاء لقتل
صلاح الدين دون أن يشمر به أحد . ويذهب أحد دعاة الاسماعيلية
الذين عاشروا هذه الأحداث إلى أن صلاح الدين وسناناً حاربا

صديقين حميمين ■ وأتبعهما اتفاقاً سوياً على العمل ضد الصليبيين ،
ولذلك أرسل شيخ الجبل راشد الدين سنان الفدائيين لقتل
الركيز كوزاد المونقراقي سنة ٥٨٨ هـ ، لأنه وجد صديقه
صلاح الدين في ميسس الحاجة إلى المساعدة ، وحفظ صلاح الدين
هذه اليد لصديقه فلما قبل عقد الصلح مع الصليبيين جعل
للإسماعيلية بنداً خاصاً في شروط الصلح وهو عدم التعرض لقلاعهم
وأملأهم ، فكان اتفاق الإسماعيلية مع أهل السنة من أسباب
انتصارات العرب على الصليبيين في حروب صلاح الدين الأيوبي ،
ويقول الإسماعيلية في الشام إن سناناً لم يشأ أن يقتل صلاح الدين
لأنه كان يعلم من قرآن الكواكب (التنجيم) أنه يموت في نفس
السنة التي يموت فيها صلاح الدين ■ ومن عجب أن يتحقق ذلك .
لعل أهم عمل قام به راشد الدين سنان هو أنه استطاع أن
يجمع كل إسماعيلية الشام تحت قيادته ■ وأن يجعل منهم قوة
وقفت أمام كل من حاول الاعتداء عليهم ■ ثم أنه نشر آراء
تعاليم الحسن (على ذكره السلام) وأضاف إليها آراء جديدة من
عنده ■ هي آراء قريبة من آراء النصيرية ■ ومن ذلك القول
بالتناسخ ، وهي عقيدة لم يقل بها الإسماعيلية من قبل بل نجد
في كتب دعاة الإسماعيلية القدماء تهكماً بالتناسخ وسخرية من
القائلين بهذه المقالة ، ولكن سناناً كان يمشي في صفه في بيته
يقول بالتناسخ ، فرسخ في غلبته ما كان يسمعه عن هذه الآراء

ولم يستطع أن ينزع هذه الآراء من مخيلته ، بل قال بها بعد أن أصبح رئيس طائفته وأذاعها بين أتباعه . ومن هنا جاء رأى الاسماعيليه بأن سنانا هو ابن أحد الأئمة الذين كانوا مستترين في آلوت . وذهب بعضهم إلى أنه هو الإمام نفسه ، وقد خص بالصفات التي خلمها الأئمة الاسماعيليه على أنفسهم منذ ظهور طائفة الاسماعيليه ، حتى إن المستشرق الفرنسي جويار توهّم أنه نادى بالآلوهية متأثراً في ذلك بالآراء النصيرية ، وللمستشرق جويار كما لغيره من الذين تعرضوا للكتابة عن الاسماعيليه عذرهم في عدم فهم معنى أو تأويل هذه الصفات ، لأن كتب التأويل الاسماعيليه لم تكن في متناول أيديهم على نحو ما هي الآن . ومهما يكن من شيء فإن اسماعيليه الشام اعترفوا بإمامة راشد الدين سنان وألصقوا به مناقب كثيرة ، ومنها أنه كان يعلم الغيب ، ويروون عنه في ذلك نواذر منها أنه أمر الفلاحين يوماً بالعودة مبكرين من الحقول إلى منازلهم لأن طفلاً صغيراً جرح جرحاً خطيراً دون أن يراه أحد ، وأن الطفل في حاجة إلى من يعتني به وإلا مات ، فلما عاد الفلاحون إلى قرأهم وجدوا الطفل على نحو ما ذكره سنان .

ويروى الاسماعيليه أيضاً أن سنانا كان متوجهاً إلى قلعة مصياف ذات يوم فذل بقريه المجدل التي خرج أهلها جيماً لاستقباله والترحيب به ، وجاءه شيخ القرية بطعام منطى بنظاء

ووضع الطعام بين يدي سنان ، ولكن سنانا أمر بأن يوضع
 هذا الطعام على حدة وأن لا يكشف أحد عن الطعام ، وأخيراً
 عند ما هم سنان ركوب دابته ، سأله شيخ القرية عن سبب عدم
 تناول شيء من طعامه الذي قدمه له وما في ذلك من امتهان له أمام
 أهل القرية ، فهمس سنان في أذنه بأن زوجة شيخ القرية هيأت
 الطعام على عجل واضطراب فنسيت أن تنزع أحشاء الدجاج منها ،
 ففضل سنان أن يتصرف هذا التصرف حتى لا يعرف أهل القرية
 شيئاً عن السبب فيزداد امتهانهم لشيخ القرية وزوجه . فقتل هذه
 القصص كان لها أثرها في عقلية الدهاء والسذج ولا سيما في تلك
 العصور التي عاش فيها سنان . فذهبوا في سنان مذاهب شتى .
 أضف إلى ذلك كله أن سناناً كان يكثر من عقد مناظرات
 بينه وبين علماء أهل السنة بحضور عدد كبير من أتباعه ، وكان
 سنان يظهر على كل مناظرية ويدحض حججهم وأقوالهم مما جعل
 أتباعه ينقادون إليه كل الانقياد ، ويتبعون تعاليمه وآراءه اتباعاً
 أعمى . واعتقدوا أنه هو الإمام من نسل نزار فلم يتطلعوا إلى
 آلموت أو إمامة من كان هناك ، ومات سنان بعد أن نظم جماعة
 الاسماعيلية في سورية ، وخلفه في رئاسة الطائفة جماعة من الدعاة
 لم يكن لهم مواهب سنان وقوة شخصيته . ولذلك تطلع اسماعيلية
 الشام مرة أخرى إلى أئمة آلموت . وقد ذكرنا كيف غزا هؤلاء
 قلاع الاسماعيلية في فارس سنة ٦٥٤ . واضطروا إمامهم

دكن الدين شاه إلى الاستسلام له فأرسل ركن الدين إلى داعيته
 بالشام أبي المعالي رضي الدين أن يسلم قلاع الشام إلى المغول ،
 فرفض الداعي أن يأنمر بأمر إمامه وأراد المقاومة ، ولكنه أمام
 انتصارات المغول في الشام اضطر أن يسلم بعض القلاع لهم سنة
 ٦٥٨ هـ ، غير أن جيوش مصر استطاعت أن تنزل بالمغول هزيمة
 منكرة في موقعة عين جالوت في رمضان سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٩م)
 وتبدد شمل جيوشهم في الشام واسترد الجيش المصري البلاد التي
 استولى عليها المغول ، فانهز الداعي أبو المعالي هذه الفرصة وجمع
 رجاله الذين أظهروا بلاءاً حسناً ضد المغول ، واسترد بهم قلاع
 الاسماعيلية ، ثم أخذ في تطهير طائفته من كل من ضعف عن
 القتال معه أو من خانته ، وبذلك قوى الاسماعيلية بعض الشيء ،
 غير أنهم لم يستطيعوا أن يقفوا أمام جيوش الظاهر بيبرس الذي
 هاجمهم سنة ٦٦٤ هـ ، وكانوا برئاسة الداعي «نجم الدين» واضطروا
 إلى أن يطلبوا من بيبرس أن يكونوا من بين رجاله ، ولعل
 خياع حصون وقلاع الاسماعيلية في فارس وتشريدهم في البلاد
 واستتار إمامهم الاسماعيلي النزازي خوفاً على نفسه كل ذلك كان
 من أسباب تخاذل الاسماعيليين بالشام وضعفهم إلى هذه الدرجة
 التي قابلوا بها جيوش الظاهر بيبرس ، فقبلوا أن يدفعوا له الجزية
 وأصبح له الحق في أن يولي عليهم من يشاء من الدعاة ويعزل من
 يشاء ، ففي سنة ٦٦٩ هـ عزل بيبرس الداعي نجم الدين وولى بدلا

عنه الداعي صارم الدين بن سالة على قلعة القدموس وقلعة الرصافة ،
أما مصياف التي كانت القلعة الرئيسية للاسماعيلية وعاصمة بلادهم
بالشام فقد احتفظ بيبرس بحكمها لنفسه ، وقد شاء صارم الدين
ابن سالة أن يتخلص من حكم بيبرس وأن ينقض الماعدة التي
كانت بين الاسماعيلية وبيبرس ، فهاجم مصياف وأمر بثورة باقي
قلاع الاسماعيلية ، ولكن حركته هذه فشلت وهرب صارم الدين
إلى قلعة العليقة التي سقطت في أيدي نائب بيبرس سنة ٦٧٠ هـ ،
وألقى القبض على صارم الدين الذي استسلم لبيبرس فحبسه ،
وكذلك استسلمت قلعة المنيقة وقلعة القدموس إلى رجال بيبرس
بينما ظلت قلعة الكهف صامدة قوية إلى أن استسلمت سنة ٦٧٢ هـ ،
وبذلك سقطت كل القلاع الاسماعيلية وعادوا إلى الخضوع إلى
بيبرس ، وبالرغم من هذه الثورة الاسماعيلية التي قاموا بها ضد
بيبرس فإنه لم يشتت الاسماعيلية كما فعل هولاكو باسماعيلية فارس
بل أبقاهم تحت سلطانه وتجنب إليهم حتى يستفيد من توجيه
الفدائيين لضرب أعدائه ، وقد صرح بذلك ابن بطوطة الرحالة
المغربي الذي زار قلاعهم سنة ٧٢٧ هـ . فبعد أن تحدث عن هذه
القلاع قال : « وهذه الحصون لطائفة يقال لها الاسماعيلية ويقال لهم
الفداوية ، ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك
الناصر بهم يصيب من يمدو عليه من أعدائه ، ولهم المرتبات ، وإذنا
أراد السلطان أن يبعث أحدهم إلى اغتيال عدوه أعطاه دية » .

فإن سلم بعد تأدية ما يراد منه فهي له وإن أصيب فهي لولده ■
ولعل الفدائي الذي كان يعتمد عليه بيرس هو المدعو « شيحة »
المدفون بدمياط والذي يقال فيه المثل العاى ■ مثل ألاعيب شيحة »
حتى إن شيحة هذا ذكر في القصة الشعبية التي وضعها المصريون
عن الظاهر بيرس ، وكنا نود أن توافينا المراجع بشيء عن
شيحة هذا ، ولكنها بخلت علينا بذلك .

وهما يكن من شيء فإن اسماعيلية الشام ظلوا على عقيدتهم
يجاهدون بها في قلاعهم وحصونهم ، منهم من يدعو للأمة
الزاريين من نسل قاسم شاه ، ومنهم من يدعو إلى الأئمة الزاريين
من نسل إمام شاه ■ غير أنهم ظلوا طائفة دينية ليست لهم دولة
بالرغم من الدور الخطير الذي قاموا به في الشام ، ولا يزالون إلى
الآن في سلمية والحواري والقدموس ومصيف وبانياس والكهف .

الفصل السادس

أغا خان

بعد تشريد الاسماعيلية النزارية وتشتت شملهم وضياح قلاعهم في فارس ، وبعد أن هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد الهند ، لم يعد أحد يسمع شيئاً عنهم أو عن نشاط سياسي لهم ، فلم يحاولوا أن يتجمعوا ليقوموا ببناء كيان سياسي خاص بهم مثل هذه المحاولات العديدة التي قاموا بها من قبل ، بل أستطيع أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن أفراد الطائفة في الهند لم يبالوا بشيء سوى المحافظة على حياتهم ، ولم يتصل أحدهم بالآئمة إلا هؤلاء الذين كانوا في حاشية الآئمة ، حقيقة ظلوا على عقيدتهم الاسماعيلية التي تأثرت بالعقائد الهندية . وحاول بعض الدعاة أن ينشروا المذهب الاسماعيلي بين طوائف الهنود المختلفة وخاصة بين طبقة النبوذين ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً ، ولكنهم عاشوا في الهند مواطنين مسالمين مثل غيرهم من سكان الهند . واعتبرتهم الدولة إحدى الطوائف الدينية التي تكثر في تلك البلاد ، ولم تهتم بهم الدولة لأنه لا خطر منهم على سلامتها ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عنهم لأنهم لم يقوموا بأعمال يسجلها التاريخ . ولم يظهر بينهم

شخصية فئة يقف عندها الباحثون ، كانوا يشتغلون بالتجارة
وتدبير المال ، شأنهم في ذلك شأن الأقليات في كل مجتمع ،
ونجحوا في ذلك نجاحاً ملحوظاً ، أما ميادين الحياة الأخرى
فتركوها لغيرهم . ظلوا يعيشون في سلم وأمان حتى القرن التاسع
عشر الميلادي ، ففيه ظهر في إيران « حسن علي شاه » الذي
جمع حوله عدداً من الاسماعيلية وغير الاسماعيلية هاجم بهم القرى
والقوافل حتى ذاع صيته في جميع أنحاء إيران ، وأصبح له نفوذ
واسع على أتباعه حتى خشيته الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران
ولاسيما بعد وفاة الشاه فتح على سنة ١٨٣٥ م ، وأشاد الإيرانيون
بأعمال البطولة التي قام بها حسن علي شاه وأتباعه فتوافدوا عليه
وانضموا لجماعته طمعا في المكاسب المادية التي سيحظون بها من
مهاجرة القرى والمدن . ولم يكن « حسن علي شاه » في ذلك
الوقت يذيع شيئاً عن اسماعيليته أو ينشر بين أتباعه شيئاً عن
عقيدته ، بل عمل أولاً على جمع الناس حوله وظهرهم بمظهر
القوى الفتى .

أما الناحية الدينية المذهبية فلم يشر إليها لا من قريب ولا
من بعيد . وفي هذه السنوات التي بدأ فيها الحسن علي شاه هذه
المحاولات ، كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم في بلاد
فارس ، ومن عادة الإنجليز دائماً في كل بلد يطمعون في استثمار
أن يثروا الدسائس في ربوعه ، ويوقعوا الفرقة بين صفوف الأمة

الواحدة ، ويستميلوا إليهم كل طامع في الجاه أو الثروة ، فكان من الطبيعي أن يتصل أعوان الإنجليز وصنائعهم في فارس بجماعة حسن على شاه ، وزينوا لهم القيام بثورة ضد الشاه ، ومنوهم أن يتولى حسن على شاه حكم فارس ، وتمت المؤامرة مع الإنجليز . وقام حسن على شاه بالثورة ، ولكنها فشلت ، وقبض شاه إيران على حسن على شاه زعيم الثورة وزج به في السجن ، ولكن الإنجليز تدخلوا واستطاعوا أن يحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن ينفي من إيران كلها ، وخرج حسن على شاه من سجنه وهو لا يدري أين يذهب وقد انقضت من حوله أنصاره وأتباعه . فزين له الإنجليز أن يرحل إلى أفغانستان . فربما استفادوا منه هناك ، إذ كان الإنجليز في حرب مع الأفغانين . وكانوا على خلاف شديد مع روسيا بسبب مناطق النفوذ في أفغانستان . رحل حسن على شاه إلى أفغانستان حزبوا بتعاليم من الإنجليز يزداد بها نفوذهم ، وكان يقنع نفسه دائماً بأنه يرد إلى الإنجليز جميلهم في إطلاق سراحه . ولكن يظهر أنه لم يوفق في مهمته . فقد فطن الأفغانيون إليه وإلى الدور الذي جاء يمثله ضدهم في خدمة أعدائهم الإنجليز ، فاضطر بعد فشله إلى الرحيل إلى الهند واتخذ مدينة بومباي مقراً له ، وأراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، فإذا بهم يفترون به إماماً للطائفة الزارية الاسماعيلية ، وخلعوا عليه لقب « آغا خان »

ومنحروه السلطة المطلقة. على أتباعه الاسماعيلية ، فتجتمع حوله الاسماعيلية في الهند وفرحوا بظهور شأنهم بعد أن ظلوا مغفورين طوال هذه القرون ، وبظهور إمامهم الذي ظل في الستر والسكران مئات السنين ، فرأى ■ حسن على شاه « أو « آغا خان » نفسه بين جماعة يطيعونه طاعة تدين دون أن يكون لهم غرض مادي ، فقوى نفوذه بينهم وأصبح كأنه سلطانهم الفعلي ، فأخذ ينظم شئونهم إلى أن توفي سنة ١٨٨١ م ، وبذلك وجدت الأسرة الأغاخانية وصارت لهم إمامة الاسماعيلية النزارية ، وارتسبوا إلى الإمام نزار بن المستنصر بالله الفاطمي ، ومؤسس هذه الأسرة هو حسن على شاه وهو أول إمام إسماعيلي لقب بأغا خان .

خلفه ابنه آغا على شاه في إمامة الطائفة الاسماعيلية النزارية ولقب بأغا خان الثاني . كان أبوه قد هبأ لتولي هذا المنصب الخطير ولتحمل إمامة طائفة دينية ، فعلمه تعلماً يتفق مع ما كان ينتظره من الإمامة ، فكان آغا خان الثاني على درجة عالية من الثقافة وكان يجيد عدة لغات إجادة تامة منها اللغة العربية ، وكان شاعراً من شعراء اللغة الفارسية والأوردية والجوجراتية ، وقد أفادته ثقافته وسعة اطلاعه في نشر التعليم بين طائفته ، بل أنشأ في الهند مدارس خاصة بالمسلمين عموماً على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم . فاكسب بذلك تقدير وحب جميع المسلمين في الهند ، وبما ضاعف في علو مكانته بين الناس أنه استطاع أن يتزوج

زوجته الثالثة كريمة الشاه فتح على شاه إيران وهي المعروفة باسم « بيبي خان » . وأنجب منها ابنه محمد الحسيني شاه المعروف بأغا خان الثالث ، وهو أغا خان المعروف في العالم بأسره المتوفى في أغسطس سنة ١٩٥٧ م ودفن في أسوان بمصر ، والذي في عهده بلغت طائفة الاسماعيلية مكانة في العالم كله ونظمت تنظيمها دقيقاً بفضل عبقرية أغا خان الراحل .

أغا خان الثالث

ولد أغا خان الثالث « محمد الحسيني شاه » في مدينة كراتشي — عاصمة الباكستان الآن — في ٢ نوفمبر سنة ١٨٧٧ م ، وتولى إمامة الطائفة الاسماعيلية عقب وفاة أبيه أغا خان الثاني في ١٧ أغسطس سنة ١٨٨٥ م . وكان أغا خان الثالث في الثامنة من عمره حين تولى الإمامة ، وكانت الإمامة أولاً لأخيه شهاب الدين شاه ، توفي في حياة أبيه . فانتقلت ولاية العهد إلى محمد الحسيني شاه الذي تولى الإمامة صغيراً فكفلته أمه وفي نفس الوقت أشرفت بنفسها على شئون الطائفة الإسماعيلية . وكانت سيدة تمتاز برجاحة العقل وحسن التدبير والقدرة على تصريف الأمور على أحسن وجه . فإليها يرجع الفضل في تشجيع المرأة الاسماعيلية على طلب العلم وعلى المساهمة في الحياة العملية جنباً إلى جنب مع الرجل . وقد طلبت إلى عدد كبير من فتيات الأسر الاسماعيلية الكبيرة

في الهند أن يتطوعن للعمل في المستشفيات إبان الحرب العالمية الأولى . وطلبت إلى المرأة الاسماعيلية الاشتراك في الأنشطة الرياضية والندوات الثقافية والجمعيات العلمية ، فألى السيدة ■ بيبي خان « يرجع الفضل الأول في نهضة المرأة الاسماعيلية وخروجها على التقاليد القديمة ، وقد لمس الاسماعيلية منذ أول وهلة تولت فيها شئونهم اهتمامها الشديد بتنظيم المجتمع الاسماعيلي ، ودفع هذا المجتمع إلى الأمام بعيداً عن التقاليد البالية التي كان عليها الاسماعيلية من قبل أو التي يعيش عليها إخوانهم الاسماعيلية البهرة . فاندفع الاسماعيلية الأغاخانية (الزارية) إلى الأخذ بأسباب التقدم الاجتماعي ، والأخذ عن الحضارة الغربية بمقدار ، ومن الطبيعي أن تهتم هذه السيدة بتربية ابنها ■ أغاخان ■ تربية من شأنها أن تجعله إماماً صالحاً لطائفته أولاً وللإنسانية ثانياً . حتى كانت سنة ١٨٩٣ وقد بلغ ابنها السادسة عشرة من عمره . فترك إليه شئون الطائفة على أن يستشيرها كلما وجد ما يدعو لاستشارتها ، أو وجد نفسه أمام مشكل من المشاكل . تركت إليه تدبير أمور الطائفة التي هو إمامها ، ولكنها ظلت ترقبه وتتبع أعماله وتوجهه إلى ما فيه خير هذه الطائفة ، وبفضل توجيه هذه السيدة الكريمة استطاعت الطائفة الاسماعيلية أن تبلغ في عهد أغاخان الراحل درجة من الثراء والثقافة والتقدم الاجتماعي ما جعلت صحف العالم تتحدث عنه . استطاع أغاخان

بما قام به من أعمال أن يكتسب احترام المسلمين وغير المسلمين ،
وبالرغم من أنه استمر يدين بآراء وعقائد الحسن (على ذكره
السلام) وجعل طائفته يدينون بنفس هذه العقائد فإنه كان يجب
دائماً أن يعرف أنه غيور على الإسلام ومصالح المسلمين . وأنه من
نسل فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فما من
مشكلة وقعت للمسلمين في عهده إلا وراه قد طرح عن نفسه
صفته المذهبية وصبقته الطائفية وتطوع للدفاع عن المسلمين ،
وتاريخه الطويل حافل بذلك ، ولنضرب لذلك بعض أمثلة فإننا
لا نستطيع أن نسرد كل ما قام به ، فالذين يعرفون تاريخ حياته
يذكرون أنه إبان حركة الكالين في تركيا وإلغاء الخلافة
العثمانية ، كان أغا خان يدافع عن الخلافة ويهب العثمانيين الأموال
ليظلوا رمزاً لقوة الإسلام والمسلمين ، مع العلم بأن تاريخ الأتراك
يدل على أنهم كانوا ألد أعداء الشيعة عامة والاسماعيلية خاصة .
فالأتراك من جمهور أهل السنة على مذهب أبي حنيفة الذي يخالف
مذهب الاسماعيلية تمام المخالفة ، والعداً بين المنصر التركي
والاسماعيلية عداً قديماً تقليدياً ، ومع ذلك كان أغا خان يدافع
عنهم لأن الخلافة الإسلامية رمز للمسلمين ، وكذلك قول عن
موقفه إبان الحرب بين الكالين واليونان ، فقد فكرت إنجلترا
أن تدخل الحرب في صف اليونان ضد تركيا . فلما علم أغا خان
بذلك أسرع إلى إنجلترا وقابل المسئولين فيها إذ ذاك واستطاع

بنفوذ وصداقته لهم أن يقنعهم بالمدول عن هذه الفكرة التي
 ستسبب إلى العالم الإسلامي بأسره . ونذكر أيضاً أنه أثناء عقد
 الصلح بين تركيا واليونان كان الاتفاق على أن يكون إقليم تراقيا
 من نصيب اليونان . فقام أغا خان على رأس وفد من مسلمي الهند
 يضم ممثلي المذاهب المختلفة ، وحاولوا إقناع لويد جورج رئيس
 وزراء بريطانيا في ذلك الوقت بالعمل على أن يكون إقليم تراقيا
 من البلاد التركية ، ولكن لويد جورج قال للوفد « إن اليونان
 تحتل هذا الإقليم بالفعل ولا سبيل لنا إلى إخراجهم منه » فابدى
 له أغا خان يقول « حسناً يا سيدي رئيس الوزراء إنني رجل كبير
 السن ولكني سأذهب إلى تراقيا وسين في عيني لطرد اليونان
 من هذا الإقليم الذي هو جزء من بلاد المسلمين » ومع هذا لم تفلح
 محاولة أغا خان ومن معه من مسلمي الهند في إعادة هذا الإقليم
 إلى تركيا . ومن مآثره أيضاً في خدمة المسلمين جميعاً أنه نادى
 بأن يأخذ المسلمون في الهند مكانهم الطبيعي في الحياة السياسية
 والاجتماعية والثقافية ، فأسس مع جماعة من المسلمين « الرابطة
 الإسلامية » سنة ١٩٠٧ وانتخب رئيساً لها سنة ١٩١٤ ، وكانت
 هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم ،
 وتعمل على النهوض بمستواهم في الهند . وهذه الرابطة تطورت
 إلى حزب سياسي كان له خطره في الهند وترب على أعماله وجود
 دولة الباكستان الحالية ، وبالرغم من أن مؤسس دولة الباكستان

« محمد علي جناح » كان من أتباع أغا خان في العقيدة . فإنه كان يخالفه في الرأي السياسي لأن أغا خان لم يوافق على تقسيم الهند أو على إنشاء دولة الباكستان إذ كان يرى وجودها إضعاف شأن المسلمين في الهند والباكستان معاً . ولكنهم خالفوا رأي إمامهم وانساقوا وراء فكرة التقسيم لما فيها من غم لهم . ومع ذلك فإن أكثر رجال دولة الباكستان المستوليين من أتباع الاسماعيلية الأغاخانية .

ولعل أقوم عمل خالد له في سبيل المسلمين هو إنشاء أول جامعة علمية للمسلمين بالهند ، فقد رأى أن الهندوكيين يتبرعون بسخاء لإنشاء جامعات علمية لهم ، وليس للمسلمين جامعة تدرس العلوم الحديثة بجانب العلوم العربية والإسلامية ، وجد أن المسلمين بالهند متخلفون في ميدان العلم لسبب انكبابهم على الكتب الدينية فقط من تفسير وحديث وتصوف وكلام وهي علوم لها قيمتها الكبرى لكل من يتخصص فيها ويؤهل نفسه ليكون رجلاً من رجال الدين ، ووجد بالهند معاهد خاصة إسلامية لتدريس هذه العلوم الإسلامية دون أن يتقدم العلماء أو الطلاب خطوات بهذه العلوم بل كان أكبر همهم هو المحافظة على تقاليد ليست من الدين الإسلامي في شيء كالتقيد بزي خاص أو التمسك بالاحجى إلى غير ذلك من المظاهر التي نشاهدها اليوم بين علماء المسلمين في الهند ، أما العلوم الحديثة فكان العلماء يقولون إنها

علوم أهل النار !! رأى أغاخان ذلك كله فدعا المسلمين في الهند على اختلاف مذاهبهم إلى إنشاء جامعة للمسلمين ، وعمل على نشر الوعي العلمى بين المسلمين ، وقام على رأس وفد من المسلمين طاف بهم كل بلاد الهند لجمع تبرعات من المسلمين لإنشاء هذه الجامعة ، واكتتب المسلمون من غير الاسماعيلية لهذه الجامعة ودفع أغاخان من ماله الخاص مبلغاً يوازى كل ما جمع من المسلمين ، فكان نتيجة هذا الجهد « جامعة أليجار » التى تجمع فى منهجها العلوم الحديثة مع العلوم الإسلامية والعربية ، وانتخب أغاخان مديراً فخرياً لها عدة مرات ، ومديرها الفخرى الآن هو طاهر سيف الدين زعيم الاسماعيلية البهرة .

وأذكر أنى كنت أتحدث إليه بفندق مينهاوس بالقاهرة عقب إنشاء الجامعة العربية ، فأبدى لى أسفه من عدم تفكير المسئولين فى إنشاء جامعة إسلامية تضم جميع البلاد الإسلامية للنهوض بالمستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى بين شعوب المسلمين « وكان من رأيه ضرورة إنشاء الجامعة الإسلامية على شرط أن لا تتدخل هذه الجامعة فى الشئون السياسية ، وكان على استعداد للقيام بالدعوة لهذه الجامعة وأن يدفع وحده عن طائفة الاسماعيلية مبلغاً يساوى جميع ما يدفعه المسلمون فى العالم إذا تحققت هذه الوحدة بين المسلمين « وتركته رحمه الله وأنا أفكر فى أقواله عن الوحدة الإسلامية وجامعة الأم العربية وتوهمت يومئذ أن الرجل

ربما كان مدفوعاً من الإنجليز لتحطيم الجامعة العربية .

اهتم آغا خان بالتبشير بذهبه الإسماعيلي ودعوة الناس إلى اعتناق عقائده . ووجه اهتماماً خاصاً للتبشير بين طائفة المنبوذين بالهند فاستجاب لدعوته جمهور فقير منهم ، وأتباعه يذكرون كيف أن شخصاً واحداً من كبار رجالهم وهو السيد محمد علي ميكلاي المليونير المعروف في بومباي استطاع بمفرده أن يدخل نحو عشرة آلاف منبوذ في الطائفة الإسماعيلية . وكان آغا خان يطلب من المؤلفين أن يضعوا كتباً عن الإسلام باللغات الأوروبية ويكافئ المؤلفين بسخاء ، حتى إن أحد الأطباء المصريين عاش في أوروبا أكثر من ثلاثين سنة يؤلف كتباً إسلامية ويتقاضى من آغا خان أجوراً عالية كفلت له أن يعيش في أرق مستوى في أوروبا .

تزوج آغا خان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين ، ففي سنة ١٨٩٧ م تزوج من أميرة إيرانية هي البيجوم (بمعنى السيدة) شاه زادي ، ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة ، وفي سنة ١٩٠٨ م تزوج من فتاة إيطالية هي تريزا ماجليانو وأنجب منها ابنه الأكبر ■ على سليمان خان ■ وفي سنة ١٩٢٧ م أعجب بفتاة فرنسية كانت تباع الحلوى والجوار في كشك بجوار مقهى اللوم بحي مونبارناس بباريس هي أندريه كارون وأنجب منها ابنه « صدر الدين خان » ثم طلقها ، وتزوج سنة ١٩٤٤ م من غارضة

أزياه انتخبت ملكة جمال العالم هي « لاروس » وهي أرملته
 للقبعة بعد أن أسلت وتمذهبت بالاسماعيلية بالبيجوم أم حبيبة .
 هؤلاء من زوجات أغا خان الراحل الشرعيات « غير أن المقرين
 إليه يقولون إنه في شبابه كان زير نساء .

كان أغا خان بعيد النظر صادق الفراسة « يعرف كيف
 يستغل المواقف في سبيل طائفته ، فقد رأى مثلاً أن بريطانيا قد
 احتلت المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا بعد الحرب المالية
 الأولى ، وأن بهذه البلاد خيرات كثيرة « فأمر الفقراء من
 أتباعه بالمهجرة إليها « وساعدهم بالمال والنفوذ لدى الإنجليز حتى
 استطاع الاسماعيلية هناك أن يستولوا على الحياة الاقتصادية ، وأن
 يصبحوا من أغنى أغنياء العالم ، ومن هنا نلمس سبب الشكوى
 في أن الاسماعيلية في كينيا يناهضون الحركة التحررية ، ويساعدون
 الإنجليزية في قمع ثورة « ماو ماو » ، وهي الثورة التي تهدف إلى
 إخراج الإنجليز من هذه المنطقة . وفي سنة ١٩٥٦ أنجه أغا خان إلى
 أتباعه في سورية فأمر بتأسيس شركة تجارية للتجارة مع اسماعيلية
 شرق أفريقيا « ورصد مليوناً من الجنيهات لهذه الشركة « وكان قبل
 ذلك بسنوات قد لاحظ ضعف حالة اسماعيلية الشام الاقتصادية وأنهم
 لا يستطيعون أن يدفعوا له « الخمس » — وهو المال الذي يجب أن
 يدفعه كل اسماعيلي إلى الإمام — فأمر بإعاقهم من هذه الفريضة
 لمدة عشر سنوات على أن يدفعها القادرون ، ويجمع هذه الأموال

وتتفق في النهوض بمستوى الطائفة في الشام ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً ، وأمر بتشكيل مجلس أعلى للإشراف على ذلك .

ويتساءل الناس عن قصة وزن أغا خان بالذهب والماس والبلاتين . فقد وزن مرتين بالذهب مرة في مدينة بومباي سنة ١٩٣٦ ، ووزن مرة أخرى في شرق أفريقيا سنة ١٩٣٧ ، وذلك بمناسبة مرور خمسين سنة على ولايته إمامة الطائفة الاسماعيليه ، ووزن ثلاث مرات بالماس سنة ١٩٤٦ احتفالاً بمرور ستين عاماً على إمامته . ووزن في القاهرة سنة ١٩٥٦ بالبلاتين بمناسبة الاحتفال بمرور سبعين عاماً على إمامته . جمع أتباعه من أبناء الطائفة ما يوازي قيمة وزنه بهذه الجواهر وقدموا هذا المبلغ هدية منهم إليه في تلك المناسبات رضىاً لحبهم العميق له وولاء منهم لإمامهم ، ولكن يجب أن نفترق بالحقيقة التي لا يعلمها غير أتباعه أو المتصلين بهم ، وهي أن هذه الأموال التي قدمت إليه في كل هذه المناسبات لم يتسلمها أغا خان ولم تدخل في رصيده الضخم في البنوك ، إنما تسلمها « مجلس إدارة الرابطة الاسماعيليه » للارتفاع بها في نشر التعليم وإنشاء المستشفيات للطائفة ومساعدة المحتاجين — أتى وجدوا من أبناء الطائفة — فجلس إدارة الرابطة الاسماعيليه هو المسئول الأول أمام أغا خان عن النهوض بالطائفة ورفع مستوى أفرادها في جميع النواحي . وقد وضع المجلس دستوراً لجمعيات الاسماعيليه في جميع بلاد العالم .

وتتلخص مواد هذا الدستور في تقسيم الطائفة الاسماعيلية إلى وحدات ، ويشرف على كل وحدة منها أخصائيون اجتماعيون وأساتذة مثقفون وأطباء ، ويتكون منهم مجلس إدارة الوحدة . وعلى كل وحدة أن تهتم بتعليم أبنائها بالمجان في مدارس خاصة بهم في الوحدة ، وإذا نفع أحد التلاميذ فالوحدة تبعث به لإتمام تعليمه في جامعات إنجلترا ، وإذا أراد التلميذ أن يختصر تعليمه ويتجه إلى التجارة فعلى الوحدة مساعدته مادياً وأديباً حتى ينجح في تجارته ، وعلى الوحدة أن تنشئ المستشفيات الخاصة بالطائفة والعلاج بها بالمجان أيضاً . ويجب أن يهتم الاسماعيلية في كل الوحدات بالرياضة البدنية وأن يكون شعارهم هو شعار الاسماعيلية الأغاخانية : « طهر نفسك وطهر جسدك » .

وفي ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٨ أصدر أغا خان دستوراً خاصاً للطائفة الاسماعيلية في أفريقيا ، وينص هذا الدستور على تقسيم الطائفة في إفريقيا إلى ثلاثة مراكز رئيسية : المركز الأول في دار السلام ، والثاني في نيروبي ، والثالث في كامبالا . أما الاسماعيلية الذين في زنجبار ومدغشقر والكونغو البلجيكي فيتبعون المركز الأول في دار السلام . ويعين أغا خان رئيساً لكل مركز لمدة عام واحد فقط ، وللرئيس سلطة اختيار الذين يماونونه في الإشراف على الاسماعيلية التابعين له بعد أن يوافق أغا خان على هؤلاء الماونين ، ونص الدستور على أن يكون السيد محمد علي ميكلاي

رئيساً عاماً لكل هذه المراكز ، وله الرأى الأخير فى كل شئ .
 بعد استشارة أغان ، وجاء فى هذا الدستور أيضاً أن كل إسماعيلى
 يريد أن يتطوع لنشر الدعوة الإسماعيلية « أو أن يكون مدرساً ،
 فعليه أن يمد نفسه لذلك إعداداً خاصاً من الناحية الثقافية العامة
 ومن الناحية الدينية ، على أن تطوعه هذا لا يكسبه أى حق من
 الحقوق بل يلزمه ببعض الواجبات ، وكل الذى يعود عليه من
 تطوعه هو شرف خدمة الدعوة وخدمة الإمام ، ويشترط على كل
 من يتطوع لهذه الخدمة والحصول على هذا الشرف أن يعتمد كل
 البعد عن أى عمل سياسى ، أو الاتصال بأية هيئة سياسية أو شبه
 سياسية حتى لو حملت هذه الهيئة اسماً ثقافياً ، ولا يسمح لنفسه
 أن يقبل هدية ما بطريقة مباشرة أو طريقة غير مباشرة من أى
 شخص أو أية هيئة . كذلك نظم الدستور المواد الدراسية التى
 يجب على المدرسين والمبشرين أن يتوسموا فى دراستها ، وأهم
 المراجع العلمية التى يعتمدون عليها ، وبين الدستور طريقة جمع
 التبرعات من الطائفة وأوجه صرفها . . . الخ ، ومركز قيادة
 الإسماعيلية الرئيسى فى العالم كله مدينة كراتشى عاصمة الباكستان ،
 ومن هذا المركز تصدر التعليقات إلى جميع المراكز الأخرى .
 هكذا أوجد أغان خان تنظيماً جديدة الغرض منها النهوض
 بالطائفة ، وبفضل هذه التنظيمات استطاعت طائفة الإسماعيلية أن
 تفتح من جديد « وأن تتحد اتحاداً قوياً جداً حتى صار لها هذه

الشهرة الواسعة في جميع أنحاء العالم ، وذلك بفضل شخصية
أغا خان الراحل بالرغم مما عرفه العالم عنه في حياته من حبه للحياة
الصاخبة بين الموائد الخضراء ومضمار سباق الخيل ، وحبه لارتداد
دور اللهو البريء وغير البريء . حتى عجب الناس من تناقض
شخصيته ، فهو إمام لطائفة دينية يمتد أتباعه عصمته ، ورفعوه
في التقديس إلى درجة الألوهية ، ثم هو في الوقت نفسه لم يتخرج
عن أن يأتي ما يتنافى مع كل دين من الأديان ، ثم إن المعروف عن
أغا خان أنه كان يسرف في لهوه ومسراته إلى درجة السفه . وفي
الوقت نفسه كان يقرر وييخل فلا يدفع ملياً واحداً لغير أبناء
طائفته ، وأذكر أن أحد أتباعه من كينيا جاء إلى مصر إبّان
الحرب العالمية الأخيرة ، وأراد أن يفتح متجرّاً ولكنه لم يوفق
إلى العثور على المحل الذي أراده ، فذهب يشكو إلى أغا خان
وكان إذ ذاك في مصر وكنت في زيارته ، فقال له أغا خان :
اذهب وابحث عن المحل الذي يلائمك . وسأوم على شرائه وسأدفع
لك الثمن . وبالفعل دفع أغا خان حوالى ألفين من الجنيهات (خلو
رجل) لمحل في عمارة الإيمويليا وتاجر فيه هذا الإسماعيلي ، وبعد
سنة واحدة انتهت الحرب ثم انتقل الإنجليز من القاهرة إلى
منطقة القناة ، فانتقل هذا التاجر الإسماعيلي وراءهم إلى القناة ثم
غاد إلى بلاده بمدة ثورة ٢٣ يولييه سنة ١٩٥٢ . وفي نفس الوقت
الذي دفع فيه أغا خان هذا المبلغ لهذا الشاب الإسماعيلي ، دخل

رجل إيراني كبير السن رقيق الحال يسأله المساعدة ، فثار أغا خان في وجهه وطرده . وحدثني أحد أتباعه المقربين إليه أنه إذا أراد أن يساعد شخصاً أو هيئة ، كان يوعز إلى أحد أتباعه اليسوريين بذلك فيتولى الدفع باسم أغا خان . دون أن يخرج هو ملياً واحداً من جيبه . وأتباعه يحفظون عنه كثيراً من النصائح في الاقتصاد وعدم الإنفاق ووجوب ممارسة التجارة ولو برأس مال قليل ، وعدم التدخين وعدم شرب الخمر ، كان يحض أتباعه على ذلك كله ويعظمهم في رسائله وخطبه لاتباع هذه النصائح .

ومن ذكرياتي معه رحمه الله ، أنني كنت أناقشه في بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الاسماعيلية . وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع إلى موضوع مما جعلني أعجب أشد الإعجاب بعقليته وثقافته وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل ما يتعلق بالاسماعيلية إحاطة تامة ، فاستأذنته في توجيه سؤال إليه ربما أغضبه . فلما وعدني بعدم الغضب قلت له :

— لقد أدهشتني بثقافتك وعقليتك ، فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إليه ؟

فضحك طويلاً جداً وعلت قهقهاته ، ودعمت عيناه من كثرة الضحك ثم قال :

— هل تريد الإجابة عن هذا السؤال ، إن القوم في الهند يبيدون البقرة . ألسنت خيراً من البقرة !!

فلم أحر جواباً بعد ذلك ، وخرجت من عنده وأنا أفكر في هذا الرجل الذي اعتقد فيه أتباعه الألوهية ، أو على الأقل إن نور الله حل به ، وكان هو يعلم أنه ليس بإله ، ولم يمسه نور الله . ومع ذلك ترك أتباعه في اعتقادهم دون أن يرشدهم إلى الحقيقة ، وترك الناس يقولون فيه الأقاويل . وهو يستخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويستمر في حياته التي اختارها لنفسه دون أن يجعل لأحاديث الناس عنه أثراً أو يقيم لها وزناً .

كان أغاخان يجيد عدة لغات أوروبية كما كان يجيد اللغة الفارسية والأوردية لغة مسلمي الهند . ولم يكن يعرف اللغة العربية عبّر عن مدى معرفته العربية فقال « قليلاً كثيراً !! » . ترك أغاخان ولدين ، الأكبر هو الأمير « علي سليمان خان » والثاني هو الأمير « صدر الدين » . أما الأمير علي خان فقد ولد في ١٣ يونيه سنة ١٩١٠ م ، من أم إيطالية ، وأمضى طفولته في رعاية أمه متقلداً بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره التحق بكلية « مايو » بمدينة أكرابالهند . وهي كلية خاصة بأبناء المهرجات قبل استقلال الهند . وكان عميد الكلية رجلاً انجليزياً اسمه « وادينجتون » . وبعد أن أتم علي خان في هذه الكلية سنتي دراسته ، تركها ليتلقى عن والده فن الحياة ، وأمضى مع والده عدة سنوات ، تركه بعدها والده ليستقل بحياته الخاصة مع أترابه من الشبان بعد أن نصحه والده بكثرة السفر

والتنقل بين البلدان ليزداد خبرة وتكثر تجاربه في الحياة . وفي
 مايو سنة ١٩٣٦ أحب علي خان فتاة إنجليزية تزوجها واعتنقت
 العقيدة الاسماعيليه وأطلقت على نفسها اسم « تاج الدولة »
 واصطحبها على خان في رحلة طويلة إلى الهند سنة ١٩٣٧ ، وإلى
 تركيا وسورية ومصر سنة ١٩٣٨ ، وشاركته في رحلة لصيد
 النمر في الهند وإفريقية . وقد أنجب منها ولده « كريم » الذي
 تولى إمامة الاسماعيليه بعد وفاة جده أغا خان الثالث ، وأنجبت له
 أيضاً ابنه الثانى « أمين » . ويظهر أن أغاخان كان يريد أن يوصى
 بولايته أحد اثنين من بعده ، ابنه « صدر الدين » أو حفيده
 « كريم » فإنه أمر أن يتقف ابنه صدر الدين وحفيده بالثقافة
 الإسلامية بجانب الثقافة الغربية ، وأن يتعلما اللغتين العربية
 والفارسية بجانب الإنجليزية والفرنسية ، وطلب إلى أن أكون
 مشرفاً على تثقيفهما بالثقافة الإسلامية ولكتى اعتذرت عن ذلك ،
 فطلب منى أن أضع لهما المنهج الذى يجب أن يسيرا عليه ، وأن
 أبين للأستاذ الذى جاء لتثقيفهما من الهند أبرز الموضوعات التى
 يجب أن يهتم بها ، ولذلك لم أدهش عند ما قيل لى إن أغا خان
 الراحل أوصى لحفيده كريم خان بإمامة الطائفة من بعده « حقيقة
 كان أفراد طائفة الاسماعيليه منقسمين على أنفسهم أثناء مرض
 أغا خان ، وكل جماعة يرشحون إمامهم المنتظر ، ولم أسمع أن أحداً
 منهم رشح الأمير على خان إلا اسماعيلية الشام فقط ، وكنت

بالهند أثناء مرض أغا خان ، وسمعت مناقشات وجدال الاسماعيليه حول الإمام الذي يختارونه من بعد أغا خان . وسألني بعضهم عن رأيي في شخصية كل فرد من أفراد أسرة أغا خان ، ولكني اعتذرت عن الإجابة عن شيء لا يعني أو الدخول معهم في مناقشة موضوع هو موضوعهم ، واكتفيت بأن أعرف اتجاههم وآراءهم ، مما لا أستطيع أن أثبت في هذا الكتاب ، وقد علم الجميع بعد وفاة أغا خان وصيته بتوليته حفيده كريم ، فبدأ بعض أفراد الطائفة يسخرون من هذا الاختيار لأسباب لا أستطيع أن أذكرها هنا لأنها شخصية خالصة . وغضب إسماعيلية الشام . فاضطر الأمير علي خان إلى أن يسافر إليهم لإقناعهم بقبول وصية إمامهم الراحل خشية الانقسام بين الطائفة ، ولا ندرى ماذا ستأتي به الأيام المقبلة .

هكذا كان تاريخ الاسماعيليه ، تاريخ طويل حافل بالحوادث . مليء بالمفاجآت ، كثر فيه المد والجزر من انتشار سلطان الاسماعيليه ونفوذهم . وكثرة تمرضهم للقتل والاضطهاد ، دافعوا عن وجودهم وكيانهم بطرق مختلفة . منها سلاح العلم ، ومنها سلاح الغدر والاغتيال ، رماهم أعداؤهم بكل موبقة فلم يأنهوا ، وطعنهم أعداؤهم بالكفر والإلحاد فردوا هذه الطعنات ، ولا يزالون إلى الآن يتمتعون بوحدتهم وقيمون شعار مذهبهم ، ويحاولون اليوم تجديد مجدهم .

الفصل السابع

أسرار نظام الاسماعيلية

في حديثنا عن تاريخ الطائفة الاسماعيلية ، رأينا كيف استطاعت أن تبسط سلطانها ونفوذها في بلاد مختلفة من العالم الإسلامي وفي أزمنة مختلفة ، وفي الوقت الذي ظهر فيه عبيد الله المهدي ببلاد المغرب وأسس الدولة الفاطمية الاسماعيلية ، كان له أتباع يدينون بطاعته وإمامته في بلاد فارس ، وبلاد اليمن ، وفي العراق ومصر ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان للإسماعيلية نظم خاصة للدعاية لمذهبهم وإمامهم ، وكان لهم دعاة محكون من ذوى المواهب الخاصة استطاع بهم إمامهم أن ينشر دعوته وعقيدتهم في هذه البلاد التي كانت تدين بالطاعة للخليفة العباسي ، والحق أقول إنى لم أجد في تاريخ العصور الوسطى في دولة من الدول أو طائفة من الطوائف اهتماماً خاصاً بالدعاية وتنظيمها على النحو الذى وجدته عند طائفة الاسماعيلية ، فلا غرو أن أزعّم أنهم أساتذة فن الدعاية فى العالم ، حقيقة كان للمعتزلة دعاة ينادون بأرائهم ، وكان للشيعة الاثنى عشرية دعاة يبشرون بالمهدى المنتظر من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان للزيدية دعاة أيضاً ، ولكن دعاة

هذه الفرق لم ينظموا التنظيم الدقيق الذي كان للإسماعيلية ، ولذلك لم يكن لهذه الفرق من التاريخ ما للإسماعيلية ، وذلك بفضل الدعاية ونظمها ، وقد لست من بعض مقابلات مع بعض المستشرقين الأمريكيين أنهم يريدون معرفة أسرار نظم الدعوة الإسماعيلية . ونحن نعرف أن الأمريكيين يجيدون فن الدعاية ويتخذون لها وسائل مختلفة ، غير أنهم لم يبلغوا بعد ما بلغته دعاية الطائفة الإسماعيلية بالرغم من أدوات الدعاية الأمريكية والمخترعات الحديثة والدولارات الأمريكية .

جعل الإسماعيلية الدعاية من صميم عقيدتهم وفلسفتهم ، وتقوم فلسفتهم المذهبية على التأمل في نظم الكون والمخلوقات التي تحيط بالإنسان وتطبيق هذه النظم كلها على الدين ، واستفادوا في ذلك بكل الآراء التي قال بها الفلاسفة القدماء ، وبكل الديانات والعقائد القديمة ومرجوا ذلك كله بالدين الإسلامي ، فاستنبطوا بذلك عقيدة هي مزيج عجيب من كل الفلسفات وكل الديانات — وسنتحدث عن ذلك في الفصل التالي — وأضافوا إلى ذلك كله فن الدعاية ، بحيث جعلوا الدعاة من حدود الدين ، وذلك إمعاناً منهم في إسباغ الفضائل على هؤلاء الدعاة الذين يبشرون بالآئمة وبمقيدتهم المذهبية حتى يستطيع الداعي أن يوجه أتباع المذهب كيفما شاء ، وأن يكون كلامه لهم من صميم المذهب ، فلا يحاجه أحد ولا يخالفه إلا كل مارق عن المذهب . فإسباغ شيء من التقديس على الداعي

كان من عوامل نجاح الداعي في مهمته لما كان للدين من أثر قوى في نفوس الجماهير . وذهب الأئمة إلى أبعد من ذلك بحيث أنى لا أغالى إن قلت إن حضارتهم في العصر الفاطمى في مصر كان أساسها الدعاية قبل كل شيء ، فهم لم يشجعوا الشعراء والأدباء إلا ليكونوا السنة لهم ، وهم لم يعملوا على الحصول على الطرائف والنفائس إلا ليباهوا بها أعداءهم . وهم لم يسرفوا في إقامة الحفلات والأعياد وما تبع ذلك من إقامة الموائد للشعب في كل مناسبة إلا من قبيل الدعاية . وكان لهم العذر في ذلك كله ، إذ كان أعداؤهم محيطين بهم من كل جانب وكان لهم أعداء يتربصون بهم داخل دولتهم الواسعة المترامية الأطراف . فكان عليهم أن يظهرُوا أمام هؤلاء الأعداء جميعاً بمظهر القوى الغنى الترف حتى يهابهم أعداؤهم ، كان ذلك بعد أن ظهر أئمة الاسماعيليه على مسرح الحياة السياسية ، وكونوا لهم دولتهم العتيقة التى عرفت بالدولة الفاطمية ، أما قبل ظهور هذه الدولة بينما كان الأئمة في دور الستر ، فكان لا بد لهم من دعاة يدعون لهم سرّاً ويبشرون الناس بقرب ظهورهم . حتى تم للإمام الاسماعيلى تأسيس ملكه ، فالدعاية إذن هى الوسيلة التى اتخذوها لتحقيق نجاحهم في دور الستر وفي دور الظهور معاً . ومن ثم كان اهتمامهم بأمر الدعاية وأمر الدعاة حتى جعلوا الدعاية من صميم المذهب الاسماعيلى .

نظم الاسماعيليه الدعاية تنظيمًا دقيقاً هو نفسه نظام دورة

الفلك ، فقد جعلوا العالم — الذى كان معروفاً فى عصرهم — مثل السنة الزمنية ، فالسنة مقسمة إلى اثنى عشر شهراً ، وإذن فيجب أن يقسم العالم إلى اثنى عشر قسماً ، وسماوا كل قسم « جزيرة » . ولا نعلم إلى الآن الأساس الذى قسموا بمقتضاه العالم إلى هذه الجزر ، فإننا نراهم أحياناً يطلقون جزيرة مصر ويريدون بها بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب معاً ، ويقولون جزيرة العراق ويقصدون بها بلاد العراق وبلوخستان ، ويطلقون على منطقة فارس وكرمان من إيران جزيرة فارس ، فتحديد الجزائر لم يزل سراً لم يستطع الباحثون الوصول إليه إلى الآن . وكذلك تقول عن أسماء هذه الجزائر ، فقد حاول الأستاذ المستشرق و. إيفانوف أن يذكرها ولكنه وجد اختلافات عديدة فى أسمائها ؛ ومهما يكن من شيء فإنهم جعلوا على كل جزيرة من هذه الجزر داعياً هو المستول الأول عن الدعاية فيها ، وكان يطلقون على هذا الداعى لقب « داعى دعاة الجزيرة » أو « حجة الجزيرة » .

والشهر ثلاثون يوماً ، ولذلك كان لكل داعى جزيرة ثلاثون داعياً تقبلاً لمساعدته فى نشر الدعوة ، وهم قوته التى يستعين بها فى مجابهة الخصوم . وهم عيونهم التى بها يعرف أسرار الخاصة والعامة ، فكانوا بمثابة وزراءه ومستشاريه فى كل ما يتعلق بجزيرته .

واليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة . اثنتى عشرة ساعة

بالليل ، واثنى عشرة ساعة بالنهار ، فجعل الاسماعيليه لكل داعر
تقيب أربعة وعشرين داعياً منهم اثنا عشر داعياً ظاهراً كظهور
الشمس بالنهار ، واثننا عشر داعياً محجوباً مستتراً استتار الشمس
بالليل . وبمعملية إحصائية بسيطة نجد أن عدد الدعاة الذين بهم
الاسماعيليه في العالم كان حوالى ٨٦٤٠ داعياً ، في وقت واحد ،
وذلك بخلاف عدد آخر من الدعاة لا يشملهم هذا الإحصاء .
وهم الدعاة الذين يكونون دائماً مع الإمام في مقره ، وكأنهم بمثابة
القيادة العليا للدعوة . فلعل هذا العدد الضخم من الدعاة الذين
بهم الاسماعيليه في بلاد العالم كان كافياً لتحويل عدد من الناس
إلى المذهب الاسماعيلي واستطاعوا بهم أن يؤسسوا هذه الدول
الاسماعيليه التي تحدثنا عنها أو القيام بهذه الحركات السياسية التي
ذكرناها . كان لكل فئة من هؤلاء الدعاة عمل خاص لا يتعداه
إمعاناً في سرية الدعوة وحفظاً لنظمها ، فدعاة النهار الاثنى عشر
في كل جزيرة كانوا يعرفون بالمكاسرين أو المكالبين وهم أصغر
طبقة من درجات الدعاة ، كانت وظيفتهم أن يشكسكوا الناس
في عقيدتهم ولا يتجاوزون ذلك إلى أى عمل آخر ، كان عليهم أن
يتنزهوا أية فرصة أمامهم بإلقاء الأسئلة على العلماء والفقهاء أمام جماهير
الناس وكأنهم تلاميذ يريدون الإفادة من أسألتهم ، دون أن يخالج
الشك العلماء والفقهاء أو الجماهير المجتمعة للأخذ عن هؤلاء العلماء
أو الفقهاء ، كانت الأسئلة تدور حول مشكلات الدين أو تفسير

بعض الآيات المتشابهة في القرآن الكريم واختلاف المفسرين فيها ، ويأخذ الداعى المكاسر في مجادلة هؤلاء العلماء والفقهاء ومناقشته مناقشة علمية عنيفة حتى يظهر عجز العالم عن الجواب الصحيح ، أو تبدو منه أخطاء فيستخر منه الداعى المكاسر ويتركه ، وهنا يظهر الشك على كل ضعيف مزعزع العقيدة من الجماهير . فيسرع إلى الداعى المكاسر يلتمس منه الجواب الشافى عن هذه الأسئلة التى طرحها والموضوعات التى ناقش فيها العلماء . فلا يجد عند المكاسر سوى أسئلة أخرى تحيره وتزيد في ترزعزع عقيدته ، والمكاسر لا يفصح عن شيء وينسكرك معرفته بالجواب في أول الأمر ، كانت أسئلة الداعى المكاسر مما لا يمكن أن يجيب عنها أحد ، فمثلاً : لم خلق الله العالم في ستة أيام ؟ ولم جعل الله السموات سبعاً ولم يجعلها أكثر أو أقل من ذلك ؟ لم وجب الفصل من المنى مع طهارته ، والاستنجاء من البول مع نجاسته ؟ ما معنى الحروف التى فى أوائل السور ؟ ومن هم حملة العرش الثمانية ؟ فهذه أمثلة لبعض تلك الأسئلة التى كان يوجهها الداعى المكاسر إلى العلماء وكأنه يريد أن يستفيد منهم . ويوجهها إلى الناس وكأنه يشك فى العقيدة . وواضح أن الداعى المكاسر كان يختار اختياراً خاصاً ، ولا يسمح له بالمكاسرة إلا بعد امتحان عسير وتجارب كثيرة ، ونجد بعض كتب الاسماضيلية تؤلف فى اختيار الداعى المكاسر والشروط التى يجب أن تتوافر فيه

والخصال التي يجب أن يتحلى بها ، من ذلك أنه يجب أن يكون من نفس البيئة التي سيكسر فيها « ولد ونشأ بها حتى يكون معروفاً عند الجمهور ، ويجب أن يكون حسيباً ونسيباً بين قومه ، فالحسب والنسب يكسبانه بعض الاحترام ، وأن يكون معروفاً بالصدق والأمانة والتقى والورع » فهذه الصفات تزيد احتراماً بين قومه » فإذا وثق داعي الجزيرة في شخص يتحلى بكل هذه الصفات بدأ في تعليمه العلوم الإسلامية حتى يتبحر فيها ، فإذا فرغ من ذلك ، أخذ يلقنه مسائل اختلاف المذاهب وآراء أهل الملل والنحل كلها من فرق إسلامية وغير إسلامية ، ويبرز له مواطن الضعف في كل مذهب وفي كل رأي ، ثم يملئه كيف يجادل في اختلاف هذه الآراء وكيف يناقش أصحابها ، فإذا تم له ذلك يبدأ الداعي في تدريبه على تفهم نفسية كل جماعة من الجماعات ، وكيف يخاطب كل طائفة من الطوائف حتى يستميل الناس إليه ، فإذا أتقن الشخص كل هذه الأمور وتدرّب عليها ، ونجح فيها النجاح الملحوظ سمح له الداعي أن يكسر الفرق الأخرى دون أن يشعر أحداً بأنه اسماعيلي المذهب بل يجب أن يكتم ذلك كتماناً تاماً ، ويستر مذهبه وعقيدته سترًا تاماً حتى لا يظن أحد إلى ما يرى إليه أو يشك فيه أحد ، كان عليه أن يتظاهر أمام جمهور أهل المنة بأنه سني متعصب « ويتظاهر أمام أهل الشيعة بأنه شيعي متطرف ، وأمام الصوفية بأنه من الأقطاب ، وأمام المسيحيين

بأنه منهم ، وهكذا كان يخاطب كل قوم حسب عقيدتهم ومذهبهم وعقليتهم ، ولذلك يجب أن يكون المكاسر ذكياً ذا فراسة حتى لا يخطئ في معرفة نفسية المجتمع أو تقدير الناس الذين يخاطبهم . فإذا فرض ووجد المكاسر أمامه خصماً عنيداً أكثر منه علماً وتبحراً في مختلف الفنون ، فكان على المكاسر أن يلج في المسائل الفلسفية العميقة التي لا حد لها والتي لا يفهمها العامة ، ويدخل معه في مناقشات باطنية هي من أخص خواص الفلسفة الاسماعيلية التي لا يعرفها غير الدعاة . وبذلك فقط ينجو المكاسر من الظهور بظهر الضعف أمام العامة ، بل ربما عظم شأنه في أعينهم لأنه يتحدث عن أشياء لا يفهمونها ولا يعرفون كنهها ، هكذا كان شأن الداعي المكاسر أو « الداعي المسكالب » الذي كانت مراتبه أقل مراتب النظام الاسماعيلية للدعاة . فإذا كان هذا هو شأن أصغر الدعاة استطعنا في سهولة أن ندرك ما كان عليه أمر كبار الدعاة على اختلاف درجاتهم وتباين مراتبهم .

إذا نجح الداعي المكاسر في تشكيك شخص من الأشخاص ، وكان هذا الشخص ممن يريدون الوصول إلى معرفة الحقيقة ، صادقاً الداعي المكاسر مدة « وألح عليه في التشكيك حتى يزعمه نهائياً عن مذهبه ، وأخيراً يتلطف به الداعي ، ويعلن له أنه سيعرفه بمن عنده علم الحقيقة ، ثم يتركه مدة نهب الأفكار والآراء ، ويحاول الداعي المكاسر أن يحتقن عنه طوال هذه المدة ، ثم

يذهب إليه بعد ذلك ويأخذه إلى أحد الدعاة الذين هم أرق منه مرتبة ، ويصفه له المكاسر بأنه العالم الحبر الذي على يديه يزول الشك من النفس لغزارة علمه وسعة اطلاعه وحميد خلقه . فيتقرب هذا الداعي إلى الشخص ويلاطفه حتى يطمئن إليه ويأخذ في التحدث إليه في رفق وبفأحه في لين دون أن يظهر له صفته المذهبية أو شيئاً من عقائده ، بل يكتفى بأن يفسر له بعض المشكلات والمسائل المذهبية تفسيراً هو أقرب إلى آراء أهل الجماعة ، ويلح له ببعض التأولات الباطنية التي لا خير من كشفها وذيووعها ، فإذا رأى هذا الداعي منه إصراراً على الوصول إلى معرفة الحقيقة كاملة ، ورغبة في التزود بمثل هذه التأويلات الباطنية أحاله إلى الداعي المأذون وهو من دعاة الليل الذي يبدأ بأخذ المهود والمواثيق المؤكدة عليه بأن لا يفشى سرّاً . ولا يطلع على آرائه أحداً من الناس ، فإذا وثق به بدأ يكشفه ببعض الأسرار الخفيفة التي لا ينزعج منها أحد ولا ينفر منها مؤمن ، ولا يزال يتدرج به من رأى إلى رأى ومن مسألة إلى مسألة ، حتى يطمئن الداعي المأذون إليه تمام الاطمئنان ، ويطمئن المستجيب إلى الداعي ، عندئذ ينقله إلى الداعي الذي هو أرق منه رتبة . فيبدأ بأن بصرح له بأسرار أشد تمقيداً ، وهكذا يتدرج المستجيب بين الدعاة حتى يسمح له أخيراً بحضور مجالس داعي دعاة الجزيرة وهو كبير دعائها الذي كان له وحده الحق في أن يعلم الناس

التأويلات الباطنية للدين والقرآن والحديث ، كما كان له الحق في تعليم الدعاة فلسفة الدعوة المذهبية (أى علم الحقيقة) فإن سمح للمستجيب أن يستمع إلى محاضرات داعى دعاة الجزيرة فقد هيا نفسه بذلك لأن يكون داعياً ، حقيقة كان داعى دعاة الجزيرة يلقي أحاديث على العامة الذين أخذت عليهم العهد والميثاق دون أن يصلوا بعد إلى درجة عالية في علوم الدعوة ، ولكن هذه المحاضرات كانت بعيدة عن الأسرار الاسماعيلية العليا .

هكذا نظم الاسماعيلية دعائهم تنظيمًا دقيقًا جداً بأن جعلوا لكل داعية عملاً خاصاً لا يتعداه ، واختاروا هؤلاء الدعاة اختياراً دقيقاً وأعدوهم هذا الإعداد حتى يستطيعوا أن يقوموا بما يعهد إليهم ، وإيماناً منهم في تكريم الدعاة وإسباغ المناقب عليهم أطلقوا عليهم « حدود الدين » الذين يجب أن يعرفهم ويتوالاهم جميع المؤمنين . بل قالوا إن الملائكة هم هؤلاء الدعاة ، ولذلك قال أحد شعرائهم من الدعاة :

أنا آدمى في الرواء حقيقى مَنَلَكُ تَبِينُ ذاك للمسترشد
وقال المؤيد في الدين داعى الدعاة أيضاً :

وروائى جسم وعصول جسمى مَنَلَكُ دونه الخطوب الجسام
فأنت ترى الشاعر يمر عن حقيقة نفسه حسب عقيدته
ومرئته في الدعوة بأن مظهره مظهر آدمى ، ولكنه من الملائكة في الحقيقة ، وهذا بالطبع مما ذهب إليه العقيدة الاسماعيلية .

أما الدعاة الذين يكونون « القيادة العليا » للدعوة ، والذين يكونون حول الإمام الاسماعيلي داعياً ، فإن الإمام يختار من دعاة الجزائر أقوامهم بنائاً ، وأصدقهم جناناً وأغزرهم علماً ، فيجعله في مرتبة « داعي الدعاة » فيكون هو المالك للجماعة الدعاة ، وإليه الإشراف على الدعوة في جميع الجزائر . وهو الواسطة بين دعاة الجزائر وبين الإمام ، فداعي الدعاة إذن لا يستر بل هو معروف بين الدعاة جميعاً وبين رجال حاشية الإمام في أدوار السر والظاهر ، لأن مرتبته ليست من المراتب السرية ، وكان عليه أن يعقد مجالس المحكمة التأويلية على اختلاف درجاتها ، فكانت هناك مجالس تعقد للخاصة ، وأخرى للعامة ، ومجالس تعقد للنساء وهكذا ، ويذهب المقرئ إلى أن مرتبة داعي الدعاة كانت من مفردات الدولة الفاطمية في مصر . بمعنى أن هذه الدولة هي التي جعلت وظيفة عمومية هامة للدعاية المذهبية دون غيرها من الدول ، والمقرئ على حق في هذا القول لأنه لم يحدث في دولة من الدول في العصور الوسطى أن خصص مثل هذا المنصب للدعاية في داخل الدولة وفي خارجها .

ومع مرتبة داعي الدعاة كانت هناك مرتبة أخرى هي مرتبة « الحجة » ويقال لصاحبها « حجة الإمام » وكان الإمام أحياناً يولي مرتبة داعي الدعاة ومرتبة الحجة لشخص واحد ، فقد كان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٠ هـ داعياً للدعاة وحجة في

الوقت نفسه ، وأحياناً أخرى كان يجعل كل مرتبة لشخص ،
وفي هذه الحالة يستر اسم صاحب مرتبة الحجة فلا يعرفه أحد حتى
داعى الدعاة نفسه . فالمرتبة إذن مرتبة سرية في أغلب الأحيان ،
ولذلك لم نعرف سوى أفراد قلائل ممن شغل هذه المرتبة طوال
تاريخ الاسماعيلية ، وهناك مرتبة سرية أخرى هي مرتبة « باب
الأبواب » ولا يعرف شاغل هذه المرتبة إلا الإمام فقط . وقد
وصف أحد علماء الاسماعيلية هذه المرتبة بقوله « وحد الباب هو
من الحدود الصفوة واللباب فهو أفضل الحدود وهو حد العصمة
ولا ينتهى إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد » أى أنه يصرح بأنه في
تاريخ الاسماعيلية الطويل لم يصل إلى هذه المرتبة إلا أفراد قلائل
يعدون بالآحاد ، ويقول عالم آخر « باب الأبواب هو باب صاحب
الزمان الذى يؤتى منه إليه وجهته على الخلق وحامل علمه وصاحب
دعوته » فمرتبة باب الأبواب أو « الباب » فقط مرتبة رفيعة تلى
مرتبة الإمام الدينية مباشرة ، وهى مرتبة سرية ، وإلى الآن
لم يكشف عن أولئك الذين شغلوا هذه المرتبة ولا عن العمل الذى
كانوا يقومون به ، غير أن الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى
ذكر فى كتابه « راحة العقل » هذه المرتبة فى ترتيب مراتب
الدعوة فقال « الباب وله مرتبة فضل الخطابة » ولم يفصل شيئاً
أكثر من ذلك .

ويحيل إلى أن مرتبة باب الأبواب أخذت من كتابات

اينوميس أحد كتاب الأدب الكنتسي في القرن الرابع الميلادي الذي قال ■ إن عيسى باب معرفة الله « أو من قول الشيعة إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ■ أنا مدينة العلم وعلى بابها » ، ومهما يكن من شيء فإن هذه المرتبة لا تزال غامضة إلى الآن . ومثلها في ذلك أيضا مرتبة أخرى هي مرتبة ■ داعي البلاغ ■ التي قيل إنها مرتبة الاحتجاج بالبرهان في إثبات الحدود العلوية ومراتبها وتعريف المعاد ، فهي من المراتب السرية التي في مركز القيادة العليا ■ ولم يفصل مؤرخو الاسماعيلية وعلماءها أمر هذه المرتبة .

وعلى ذلك نستطيع أن نرتب مراتب كبار الدعاة الذين كانوا يلازمون مقر الإمامة على النحو الآتي :

أولا : مرتبة باب الأبواب ، وهي أعلا المراتب كلها وهي مرتبة سرية .

ثانيا : مرتبة الحجة .

ثالثا : مرتبة داعي البلاغ .

رابعا : مرتبة داعي الدعاة أو الداعي المطلق : وهي أعلا مرتبة ظاهرة .

هذه مراتب الدعاة في النظام الاسماعيلي الذي وضع للدعاية ، وقد اجتهدوا أن لا يخلو بلد من دعاةهم حتى إن المعز لدين الله الفاطمي قال : إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ولا يظنون أنا

لأنني إلا بمن شاهدناه وكان يحضرتنا ، ولو كان ذلك لكنا قد
صبرنا من بعدنا ، وقد أوجب الله على جميع خلقه ولايتنا
ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد ،
ولكننا للرافة بهم ولما أرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا
بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا . وبفضل هذا
التنظيم انتشرت الدعوة الاسماعيلية في جميع الأقاليم وبين كل
الطبقات . وقوى نفوذ الاسماعيلية في بعض البلاد على نحو
ما ذكرناه من قبل ، كما أننا تحدثنا عن لون آخر من ألوان الدعاية
فإن الإمام الفاطمي كان يستدعي أبناء كبار رجال الدولة ووجوهها
ليقيموا معه في القصر ، ويربهم تربية خاصة حتى إذا أصبحوا
في مقام الرجال ولآهم الإمام الإمارات والولايات ، أو استعان بهم
في مهامه . وبذلك استطاع أن يطمئن إلى ولاء هذه الإمارات
والولايات له دائماً وعدم الخروج عن طاعته ، فإن هؤلاء الولاة
كانوا بمثابة أبناء الإمام بما غرسه فيهم من تعاليم منذ الصغر
فنشأوا على حبه وطاعته .

أما النظام الذي وضعه الحسن بن الصباح لدعوته الجديدة
فكان ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول الخاص بالدعاية الدينية فهو شبيه إلى حد بعيد
بما كان عليه أيام الفاطميين بمصر ، ولكن عدد الدعاة تقلص
ونقص بأن جعل « الشيخ » في مرتبة داعي الدعاة وله ثلاثة

تواب فقط في الجبل وخوزستان والشام ، ومع كل نائب عدد غير محدود من الدعاة الذين كانوا يدعون الناس للعقيدة الاسماعيلية النزارية .

أما القسم الثاني فهو خاص بالفدائيين ، وهؤلاء كانوا يتبعون شيخ الجبل نفسه مباشرة ، كانوا شبه حرس خاص له وهو في الوقت نفسه قائدهم الأعلى يتلقون منه الأوامر مباشرة . ولكنهم على ثلاث درجات : أولا « مرتبة الرفاق وهم أشبه شيء برؤساء الفرق الذين كانوا يدربون الفدائيين ويشرفون على حاجياتهم ومطالبهم ، والمرتبة الثانية هي مرتبة الفدائيين وهم المجندون للقيام بما يأمرهم به شيخ الجبل بعد أن تم تدريبهم وأظهروا استعدادهم للتضحية في سبيل إمامهم ومذهبهم ، أما المرتبة الثالثة فهي مرتبة المستجيبين وهم الذين في دور التدريب والتعليم وهؤلاء كانوا من الشبان الذين لا يزيد عمر الواحد منهم على عشرين عاما ، وهؤلاء كانوا في صغرهم يدربون بإشراف شيخ الجبل في قصره .

ونفس هذا النظام الذي وضعه ابن الصباح في فارس طبقه شيوخ الجبل في بلاد الشام ، وساروا على نهجه .

أما الآن فالاسماعيلية البهرة يحملون في كل بلد من البلدان التي فيها جماعة منهم رجلا من رجال الدين الذين نخرجوا في « الجامعة السيفية » بمدينة سورات ، ويطلقون عليه لقب « عامل » وهو الذي يجمع من الطائفة « الخمس » أي خمس

ما يكسبه كل إسماعيلي سنوياً ■ ■ السلة فطرة ■ أى الهدايا التى تقدم للداعى المطلق بمناسبة عيد الفطر . أو غيره من المناسبات ■ ويقوم على كل شئونهم الدينية من زواج وطلاق وصلاة . . الخ . وللاسماعيلية النزارية كذلك داعية فى كل مجتمع يعيشون فيه يطلقون عليه لقب « المسكى » وهو يقوم أيضاً بما يقوم به « العامل » عند طائفة البهرة ، ولا وجود للفدائيين الآن ولا للنظام السرى الذى كان معروفاً من قبل ■ واختفت ألقاب ومراتب الدعوة القديمة ولم يبق منها سوى لقب الداعى المطلق الذى لداعى البهرة ، والحق أن اختفاء الألقاب عند الاسماعيلية النزارية كان منذ قيام الحسن بن الصباح بدعوته فى فارس ، إذ اضطره نظامه الجديد إلى بعض التغييرات فى العقائد والنظام الاجتماعى والسياسى ، وقد قام صراع بين التيارات المذهبية الاسماعيلية القديمة بما فيها من مصطلحات عربية ، وبين المصطلحات الفارسية الجديدة التى أتى بها ابن الصباح ، وهى مصطلحات متأثرة إلى حد بعيد بالمصطلحات الصوفية ■ فاختلفت درجات الدعاة التى كانت فى عصور دور الستر وفى العصر الفاطمى مثل الحجة وداعى الدعاة وداعى البلاغ . . الخ ، وأصبح لقب « پير » بدلاً من الحجة ، ولقب « مُلاً » أو « آخوند » بدلاً من الداعى . وبعد الغزو المغولى وتشتت الاسماعيلية فى آسيا الوسطى والهند ، وأصبح عبء جمع شمل الطائفة يقع دائماً على البير ، ولذلك لا ندهش أن نجد

« البير » كان عادة أقرب القرين إلى الإمام إن لم يكن من أقرب أقاربه إليه وأنه جوهر الإمامة ، تقول ذلك بالرغم من المعلومات الضئيلة التي وصلتنا عن النزارية بعد تشتتهم على أيدي المفول . فإن المؤلفات الاسماعيلية عن تلك الفترة لم تصل إلينا ، ويغلب على الظن أن نشاط الدعاة لنشر الدعوة المذهبية قد انتهى تقريباً ، وكرست الجهود إلى إنقاذ بقايا الاسماعيلية ولم شعثهم ، أما الاسماعيلية في فارس إبان حكم الصفويين الذين اتخذوا عقيدة الشيعة الاثني عشرية مذهباً رسمياً للدولة فلا نعرف عن نظمهم شيئاً إلا أن « البير » كان في زى الصوفية وأنه كان يخلط التعاليم الاسماعيلية النزارية بالأراء الصوفية .

الفصل الثامن

عقائد الاسماعيلية

لملك لاحظت مما سبق أن العقائد الاسماعيلية كانت السبب الأول لظهور طائفة الاسماعيلية ، فلولاً أن فريقاً من الناس اجتمعوا على رأى فى الإمامة يخالف ما قال به الآخرون ، ودعوا إلى رأيهم هذا بالوسائل والطرق السرية التى أشرنا إليها ، لولا ذلك كله ما وجدت هذه الفرقة . وكان الخلاف فى أول الأمر بسيطاً لا يعدو أن يكون حول الإمامة ، ولكنه استفحل بعد ذلك ، وبعضى الزمن أدخلت آراء جديدة وأصول للعقيدة تبعدهما كانت عليه الطائفة قبل خروجها عن حلبة التشيع العامة . وسأحدث الآن عن عقائد الاسماعيلية بعد أن تبلورت ووضع فيها علماء الدعوة كتباً عرفت باسم « كتب الحقيقة » . ولكنى قبل أن أتحدث عن هذه العقائد أرى أن أشير إلى عدة نواح رئيسية هامة فى دراسة العقائد الاسماعيلية ، فأول ما يكون من ذلك أن المبادأة العملية (أى علم الظاهر وهو ما يتصل بقرائض الدين وأركانه) والمبادأة العملية (أى علم الباطن من تأويل وغيره) والمثل العليا للتنظيمات الاجتماعية ، والمثل العليا للإدارة السياسية .

هذه كلها كانت عند الاسماعيلية من صميم العقائد ، وكل من هذه
النقط الأربع الرئيسية في حياة الاسماعيلية متداخل في الأخرى
تداخلا كلياً ، وتعتمد كل واحدة على الأخرى اعتماداً تاماً بحيث
أصبح من الصعب أن نفرق بينها أو أن نتخذ نقطة واحدة منها
على أنها عقيدة الاسماعيلية ، ولذلك أخطأ القدماء في إطلاق لقب
«الباطنية» على فرقة الاسماعيلية ، لأن هذه الفرقة تدين بالباطن ،
والاسماعيلية يقولون بالباطن حقاً ولكنهم يقولون بالظاهر أيضاً .
وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معاً . بل كفروا من اعتقد
بالباطن من دون الظاهر أو بالظاهر من دون الباطن ، وفي ذلك
يقول الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ■ من عمل بالباطن
والظاهر معاً فهو منا ■ ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب
خير منه وليس منا . فالاسماعيلية لا يقولون بالباطن فقط كما وهم
القدماء ■ بل إن الظاهر أساسى من أسس عقيدتهم أيضاً . وقد
رأينا تنظيمهم للدعاية التي تغلغل في نظمهم الاجتماعية والسياسية
فأصبحت نظمهم تتوقف على معرفة الظاهر والباطن ، كما يتوقف
الظاهر والباطن على تلك النظم ، غير أن تطور الأحوال الاجتماعية
والسياسية بمرور السنين وتغيرها حسب مقتضى الحال جعل
العقيدة الاسماعيلية متطورة أيضاً ، بل اختلفت العقيدة الاسماعيلية
في كل قطر عما هي عليه في قطر آخر في الوقت الواحد ، ففي
زمن واحد نستطيع أن تبين عقائد مختلفة متضاربة تنسب كلها

إلى الإسماعيلية . وهذا الاختلاف عندى هو نتيجة لما كان يذيعه
الدعاة المختلفون فى البلدان المختلفة ، فهما أخذ هؤلاء الدعاة عن
مصدر واحد . فلا شك أنهم مختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً
بحسب شخصية كل واحد ، وحسب مقدار فهمه للعقائد
أو تأويله الباطنى للأمور الدينية كانوا مختلفين فى ثقافتهم .
ومختلفين فى عقلياتهم ، أضف إلى ذلك اختلاف المجتمعات التى
يمشون فيها ، فمنهم من كان يدعو بين الدهماء والسذج ، ومنهم
من كان يدعو بين جمهور مثقف متحضر ، فكان لابد أن نجد
اختلافاً بين هؤلاء الدعاة فيما كانوا يذيعونه على الناس . ولندكر
على سبيل المثال لا الحصر أن الداعى النخشبى - وكان من الدعاة
فى الدولة السامانية وقتل سنة ٣٣١ هـ وضع كتاباً فى فلسفة
العقيدة الإسماعيلية سماه كتاب « المحصول » . وفى نفس الوقت
وضع الداعى أبو حاتم الرازى الداعى بيلاد الديلم كتابه « الإصلاح »
خالف فيه آراء زميله النخشبى مخالفة تامة ، ثم جاء الداعى
أبو يعقوب السجستانى وكان ببخارى وقتل سنة ٣٣١ هـ وألف
كتاب « النصرة فى شرح ما قاله الشيخ الحامد فى كتاب المحصول »
انتصر فيه للداعى النخشبى وخالف زميله أبا حاتم الرازى ،
ولكنه أتى بآراء جديدة لم ترد عند الشيخين السابقين ، ثم جاء
بعده داعى المراقين وأكبر فلاسفة الدعوة الإسماعيلية على
الإطلاق وهو حميد الدين الكرمانى التوفى بعد سنة ٤١١ هـ

فألف كتابه « الرياض » حاول فيه التوفيق بين كل هذه الآراء المختلفة . فظاهر إذن اختلاف هؤلاء الدعاة الذين ذكرناهم وهؤلاء يمدون شيوخ الدعوة وكبار علمائها في القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس من الهجرة . وعندهم أخذ غيرهم من الدعاة والعلماء ، فإذا كان شيوخ الدعوة أنفسهم قد اختلفوا على هذا النحو فإذا نقول عن الدعاة الآخرين ، وإذا قرأنا كتب هؤلاء الدعاة وقارناها بما كتبه جعفر بن منصور اليميني أو ما كتبه القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي سنجد خلافاً شديداً جداً بين ما قاله هؤلاء الدعاة الذين كانوا في فارس وبين العلماء الذين كانوا مع الأئمة في بلاد المغرب ، وإذا قارنا بين آراء هؤلاء الدعاة والعلماء جميعاً وبين ما كان يدعو إليه ابن حوشب الملقب بمنصور اليميني في بلاد اليمن ولا سيما فيما جاء في كتاب « الكشف » أو في « رسالة الرشد والهداية » سنجد اختلافاً آخر . هذا كله يدل على أن عقائد الاسماعيلية تختلف من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن . ونسوق مثالا آخر للتدليل على ما ذهبنا إليه ، فهناك بعض أقوال وردت في كتاب « المجالس والمسائرات » — الذي جمع فيه القاضي النعمان بن محمد ما سمعه أو شاهده عن الإمام المعز لدين الله الفاطمي — وهذه الأقوال إن دلت على شيء فإنما تدل على مقدار غضب الإمام المعز على بعض الدعاة الذين غالوا في الأئمة ، فقد جاءه أحد دعاة في جزيرة فارس ،

وسأل الداعي إمامه عن أمر من أمور الدين ، فلما أجابه المزمز
 لدين الله أظهر الداعي شيئاً من الدهشة بدت على وجهه ، فسأله
 المزمز عن سبب ما اعتراه ، أجابه الداعي بأن الاسماعيلية في فارس
 يقولون برأى آخر يخالف ما ذهب إليه الإمام نفسه ، وذكر
 الداعي ما عليه الاسماعيلية في جزيرة فارس ، فاستعظم المزمز لدين الله
 أن يقول أتباعه بهذه المقالة الشنيعة واستنكرها .

مثال آخر نسوقه لطرافته ، ذلك أن الدعاة في مصر في عهد
 المزمز لدين الله وعهد العزيز بن المزمز أذاعوا أن الأئمة يعرفون الغيب ،
 وأنهم يعرفون حركات النجوم والكواكب ومنها يستطيعون
 معرفة ما يريدون معرفته ، ثم إن عندهم كتاباً يسمى « بالجفر »
 ورثوه عن الإمام جعفر الصادق يستطيعون به معرفة هذه النيبات ،
 حتى إن أحد علمائهم وهو جعفر بن منصور المين وضع لهم كتاب
 « الفترات والقارات » فيه ما يعلمون به الغيب ، أذاع الدعاة
 ذلك كله فانقسم الناس في مصر بين مصدق ومكذب ، ومنهم
 من سخر من معرفتهم الغيب هذه ، حتى إن العزيز بالله صعد المنبر
 يوم جمعة ليخطب الناس على عادة الأئمة الفاطميين فوجد على المنبر
 ورقة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم غيب قتل لنا كاتب البطاقة

فهنا يدل على ما كان بين المجتمع المصري في ذلك الوقت من
تبليبل في الفكر حول معرفة الأئمة للغيب ، واستشارتهم النجوم
لمعرفة المستقبل ، هذه البلبلة التي صورها الشاعر الأمير تميم
ابن المزلة في الفاطمي نفسه في إحدى قصائده وفيها يقول
مخاطباً الإمام العزيز :

لما اختلفنا في النجوم وعلمها	وفي أنها بالنفع والضر قد تجري
فمن مؤمن منا بها ومكذب	ومن مكث فيها الجدال ولا يدري
فعلمتنا تأويل ذلك كله	بما فيه من سر وما فيه من جهر
وأخبرتنا أن النجم كاهن	بما قال ، والكهان من شيعه الكفر
وإن جميع الكافرين مصيرهم	إلى النار في يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومريه	وألقنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن	يحلى ظلام الشك من كل ذي فكر
فمدنا إلى أن الكواكب زينة	وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة في بروجها	تسير بتدبير الإله على قدر
وأن جميع الغيب لله وحده	تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما	رووه عن المختار جدم الطهر
فناظم هذه الأبيات ابن إمام من أئمة الاسماعيليه ، وأخو	
إمام من أئمتهم ، وكانت تؤول إليه الإمامة لولا بعض الأمور	
أخذها عليه أبوه ، ومع ذلك فكان من الذين حازوا في آخر معرفة	

الأئمة الغيب ، واستطلاع ذلك من حركات الكواكب والنجوم ، إلى أن جلاها له أخوه العزيز ، وأزعم أن رجوع الإمام العزيز عن ادعاء معرفة الغيب إنما ترجع إلى شخصية المصريين فلولا كثرة فكاهاتهم وتندروهم بالأئمة الاسماعيلية في هذه المقالة ما رجع العزيز عنها ونقاها عن الأئمة بالرغم مما كتبه الاسماعيلية في ذلك قبل استقرار الأئمة بمصر . فالنكت المصرية اللادعة التي أقول إنها سلاح من أسلحة مقاومتهم ، كانت من المولمات الفعالة في تغيير العقيدة الاسماعيلية وتطورها في مصر بحيث أصبحت عقائد الاسماعيلية في الدور الفاطمي المصري تختلف اختلافاً ملحوظاً عن عقائد الاسماعيلية في اليمن أو في فارس في نفس هذا العصر . ومادام الأمر كذلك في اختلاف العقيدة الاسماعيلية فالحديث عنها ليس سهلاً ميسوراً مثل الحديث عن العقائد الثابتة ، ومع ذلك كله فهناك بعض أصول اتفق عليها الاسماعيلية جميعاً منذ وجدت الاسماعيلية إلى الآن ولم يختلف فيها اثنان . فمن هذه الأصول القول بضرورة وجود إمام معصوم متصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، والنص على الإمام يكون من الإمام الذي سبقه بحيث تتسلسل الإمامة في الأعقاب ، أي أن ينص الأب على إمامة أحد أبنائه . هذا الأصل هو مبدأ وجود طائفة الاسماعيلية ، فكما ذكرنا من قبل كان هذا هو المبدأ الذي انشقت بسببه الاسماعيلية عن الشيعة عقب وفاة جعفر الصادق ،

واعتراف أكثر شيوخه بإمامة ابنه موسى الكاظم ، فقد أباح بعضهم الاعتراف بإمامة موسى ، ونادوا بإمامة محمد بن إسماعيل لأنه في نظرهم صاحب النص . ومن الغريب أن أئمة الاسماعيليين أنفسهم لم يحترموا هذا الأصل الأساسي من أصول العقيدة ولم يتقيدوا به إلا في العصور القديمة ولا في عصرنا الحديث ، فالمرزوقين الله نص على ولاية ابنه عبد الله من بعده ، ولكن عبد الله توفي في حياة أبيه ، فنص المرزوق مرة أخرى على ولاية ابنه المرزوق ، يخالف بذلك الأساس الذي قامت عليه الطائفة الاسماعيلية في أن الإمام لا تنتقل من أخ إلى أخ إنما تنتقل من أب إلى ابن ، وفي عصرنا الحديث نص آغا خان الثاني على إمامة ابنه شهاب الدين شاه ، ولكن شهاب الدين توفي في حياة أبيه فنص آغا خان الثاني على ابنه الذي تولى الإمامة وعرف بآغا خان الثالث . وقد رأينا آغا خان الثالث يحرم ولديه على خان وصدر الدين خان من الإمامة وينص على حفيده « كريم » الذي لقب بآغا خان الرابع وهو الإمام الحالي للطائفة ، وهذا كله يدلنا على أن هذا الأصل من أصول المذهب الاسماعيلي أصبح نظرياً فقط بمجرد أن أصبح للاسماعيلية دولة سياسية وتدخلت التنظيمات السياسية في العقيدة فسكفتها حسب ما أملت الظروف السياسية .

وبالرغم من خروج الأئمة أنفسهم على مبدأ « النص على الإمام » لأمر يقتضيه الاعتبارات السياسية ، فالإمامة كانت

ولا تزال الأمور الذي تدور عليه كل العقائد الاسماعيلية والفلسفة
الاسماعيلية « ذلك أنهم جعلوا ولاية الإمام الركن الأساسى لجميع
أركان الدين « فدعائم الدين عندهم منذ أول أمرهم وفى الدور
الفاطمى عصر وعند طائفة البهرة اليوم هى الطهارة والصلاة
والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية ، على أن الولاية هى أفضل
هذه الدعائم ، فإن أطاع الإنسان الله تعالى ورسالة الرسول الكريم
سلى الله عليه وسلم وقام بأركان الدين كلها وعصى الإمام أو كذب
به فهو آثم فى معصيته وغير مقبولة منه طاعة الله وطاعة الرسول ،
ويقول فى ذلك القاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى فى كتابه
« دعائم الإسلام » ، وهو أقوم كتاب فى فقه المذهب الاسماعيلى :
روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب صلوات الله عليه أنه
سئل ما الإيمان وما الإسلام ، فقال : الإسلام الإقرار « والإيمان
الإقرار والمعرفة ، فمن عرفه الله نفسه ونبيه وإمامه ثم أقر بذلك
فهو مؤمن » كما وضع الاسماعيلية كتباً كثيرة تدور كلها حول
نقطة واحدة هى أن من أطاع الإمام فقد أطاع الله ، ومن عصى
الإمام فقد عصى الله ، وأن بالإمام يعبد الله وبه يطاع الله وبه يمضى
الله . فالولاية هى طاعة الإمام ومعرفة ، ومن الحق أن نقول إن هذه
العقيدة فى ولاية الإمام ليست مقصورة على طائفة الاسماعيلية ، إنما
يقول بها الشيعة الاثنى عشرية ، كما قال بها غلاة الشيعة « لجميع
خزق الشيعة على اختلاف آرائها وتباين عقائدها توجب ولاية
الإمام ، وتفسر الآية القرآنية الشريفة « وأطيعوا الله وأطيعوا

الرسول وأولى الأمر منكم » بأن أولى الأمر هم الأئمة ، ولكن
فرقة من الفرق إمام يحملون إليه هذا التفسير ، وحاولت كل فرقة
أن تثبت الإمامة في أئمتها من دون أئمة الفرق الأخرى ، بل
كثيراً ما هاجمت فرقة قول الفرق الأخرى في ولاية الإمامة .
مثل محاولة دعاة الاسماعيلية التمسك بفكرة دخول الإمام محمد بن
الحسن العسكري الإمام الثاني عشر للشيعة الموسوية (الاثني
عشرية) السرداب ، وأنه سيظل بهذا السرداب حتى يخرج
يوم القيامة ، كما طعن علماء الشيعة الاثني عشرية في أئمة الاسماعيلية
وطعن الاسماعيلية والاثنا عشرية في أئمة النلاة ، ومما يكن من
شيء فإن عقيدة الإمامة أقدم من وجود الاسماعيلية ، وتشترك فيها
جميع فرق الشيعة ، ومن هنا جاءت الآراء الشيعة عن الإمامة
واحدة تقريباً ، فهم يفسرون بعض الآيات القرآنية بأن المقصود
بها الأئمة من أهل البيت ، فقوله تعالى « إنما أنت منذر ولكل
قوم هاد » وقوله تعالى « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن
الأرض يرثها عبادي الصالحون » فهذه الآيات وغيرها وردت
عن الأئمة من أهل البيت ، يشترك في هذا القول الاسماعيلية
والاثنا عشرية . ولكن الاسماعيلية جعلوا للأئمة صفات لم تعرفها
فرق الشيعة الأخرى . وهي صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم
في مرتبة لا تمت إلى البشرية بصلة . بالرغم من إلحاح كتاب
الاسماعيلية في القول بأن الأئمة من البشر وأنهم خلقوا من الطين

ويعرضون للأسراض والآفات واللوث مثل غيرهم من بني آدم ،
 ولكننا نجد في تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو « وجه الله »
 « ويد الله » « وجب الله » وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم
 القيامة فيقسمهم بين الجنة والنار ، وأنه هو « الصراط المستقيم »
 و « الذكر الحكيم » « القرآن الكريم » إلى غير ذلك من
 الصفات ، ولهم في ذلك كله أدلة يسوقونها لكل صفة من
 الصفات ، فثلا يقولون : إن الإنسان لا يعرف إلا بوجهه ، ولما
 كان الإمام هو الذي يدل العالم على معرفة الله ، فيه إذن يعرف الله
 فهو وجه الله ، أي الذي به يعرف الله ؛ وأن اليد هي التي يبطش
 بها الإنسان ويدافع بها عن نفسه ، والإمام هو الذي يدافع عن
 دين الله ويبطش بأعداء الله فهو على هذه المثابة يد الله ، وهكذا
 نقول عن بقية الصفات التي خلصوها على الإمام ، ولكن الاسماعيلية
 الذين تحدثوا عن الإمام على هذا النحو « وعن الله سبحانه وتعالى :
 تراهم قد جردوا الله سبحانه وتعالى من كل صفة وزهوه التنزيه
 كله ، فتوحيد الله عندهم هو بأن ينفي عنه سبحانه جميع ما يليق
 بعبداته التي هي الأعيان الروحانية — ومخلوقاته — التي هي الصور
 الجسمانية — من الأسماء والصفات ؛ وأن نفي المعرفة هو حقيقة
 المعرفة وسلب الصفة هو نهاية الصفة ؛ فأسماء الله الحسنى التي
 نسبها الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم لا تقال لله تعالى ، بل
 جماعها للعقل الشكلي الذي تحدث عنه الفلاسفة ، ووصفوا العقل

الكلّي بكل صفات الكمال على نحو ما ذكره الفلاسفة الأقدمون تماماً « وصيغوا هذه الآراء والأقاويل القديمة بالصيغة الإسلامية ، فنسبوا أسماء الله الحسنى إلى العقل الكلّي ، وأطلقوا على العقل الكلّي أيضاً اسم « المبدع الأول » وأن هذا المبدع الأول أو العقل الكلّي هو الذي رمز إليه الله تعالى « بالقلم » في الآية القرآنية « نون والقلم وما يسطرون » وعلى هذا فالقلم أو المبدع الأول أو العقل الكلّي هو الخالق المصور الواحد القهار ، الجبار ، العزيز ، المذل « العلي القدير .. الخ ، وأنه هو الذي أبدع النفس الكلية أو المبدع الثاني الذي رمز إليه في القرآن الكريم « بالروح المحفوظ » وجعلوا للنفس الكلية جميع الصفات التي للعقل الكلّي إلا أن العقل الكلّي كان أسبق في الوجود وإلى توحيد الله وتنزيهه فبذلك كان العقل الكلّي أسبق من النفس الكلية وأفضل فسمى « بالسابق » وسميت النفس الكلية « بالتالي » وبواسطة العقل الكلّي والنفس الكلية وجدت جميع المبدعات الروحانية والمخلوقات الجسمانية بل كل ما نشاهده في هذه الدنيا من جماد ونبات وحيوان وإنسان « وما في السموات من نجوم وكواكب ، فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلّي والنفس الكلية وبمعنى آخر إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خله الإسماعيلية على العقل الكلّي فهو الإله عند الإسماعيلية ، وإذا ذكر الله عند الإسماعيلية فالتقصود هو العقل الكلّي ، فإذا

عرفنا ذلك كله استطعنا أن نقول إنهم لم يأتوا بهذه الآراء
الفلسفية عبثاً ، بل جاءوا بها لإسباغ صفة خاصة على الإمام الذي
قالوا إنه من البشر . ذلك أنهم ذهبوا إلى أن العقل الكلى في
العالم العلوى يقابله الإمام في العالم الجسائى . ومعنى هذا عندهم أن
كل الأسماء والصفات التى خلعت على العقل الكلى هى أيضاً
صفات وأسماء للإمام لأن الإمام مَثَلٌ للعقل الكلى . فإسماء الله
الحسنى التى قالوا إنها أسماء العقل الكلى هى أسماء للإمام ، فالإمام
إذن هو الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، المتتقم الجبار .. الخ
من الأسماء ، ولذلك قال ابن هانى الأندلسى الشاعر فى مدح
المعز لدين الله الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وقال الشاعر أبو الحسن الأخفش فى مدح الأمر بأحكام الله :
بشر فى العين إلا أنه عن طريق العقل نور وهدى
جَلَّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسداً
تدرك الأفكار فيه بانياً كاد من إجلاله أن يعبد
ويقول شاعر آخر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحى والتنزيلا
وإذا تمثل راكباً فى موكب عانيت تحت ركابه جبريلا
ويقول الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى فى مدح أخيه
المعز بالله :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تنامي منك جوهره تناهياً جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
وهكذا أخذ الشعراء يمدجون أعتهم بهذه الصفات الباطنية
التي لم يقل بها سواهم ، ذلك بالرغم من قولهم بأن الأئمة مخلوقون
من الطين وفي ذلك يقول الشاعر المؤيد بالدين داعي الدعاة :
قد خلقتم من طينة وخلقنا نحن منها ، لكن بدا ترتيب
ولكن هذا الداعي الشاعر عاد فقال :

نعم قد أفاضها في البرايا فتخلت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برا الله وغايات خلقه والسلام
فإليهم تنمي النفوس إذ راحت الأرض تنمي الأجسام
ويجب أن نلاحظ أن هذه الصفات التي سبغوها على الأئمة
والتي جعلته مثلاً للعقل الكلي ، لم يستطيعوا أن يصرحوا بها
للعمامة أو للمبتدئين من المستجيبين ، بل لم يكن يعرفها إلا من
استمع إلى داعي الدعاة نفسه في المجالس التي كان يقدّمها للخاصة
فقط ، أما أمام جمهور الناس ولا سيما في الدور الفاطمية بمصر
فلم يكن الدعاة قادرين على الإبانة عن هذه العقائد أو الإشارة
إليها « وإلا كن ينالهم المصريين ما ناله دعاة تأليه الحاكم بأمر الله »
ولذلك عمد الدعاة الإسماعيلية في مصر إلى إخفاء أكثر عقائدهم
السرية عن الناس ولم يظهروا منها إلا ما كان هيناً رقيقاً بالشعب ،

وما كان لا يخالف العقائد التي كانت سائدة في مصر ، وهي القرية
من مذهب الشافعي ومذهب مالك ، حتى إننا إذا درسنا كتب
الفقه الاسماعيلي التي وضعت في الدور الفاطمي مثل كتاب « دعائم
الإسلام » أو كتاب « الاقتصار » للقاضي النعمان نجد أنها
قريبة كل القرب من مذهب الشافعي ومالك إلا ما جاء في هذه
الكتب عن ولاية الإمام ووجوب طاعته « كان ذلك كله أمام
جمهرة الناس ، أما بين الخاصة من الدعاة وكبار رجال الدولة
ومن يأكلون على كل الموائد ، فكان لهم أن يستمعوا إلى هذه
الآراء السرية التي كان يلقيها داعي الدعاة « وفيها مثل هذه العقائد
التي تجعل من الأئمة شبه آلهة ، وهذه المجالس التي كان يلقيها
داعي الدعاة هي التي تضم العبادة العلمية أي علم الباطن ، فقد
ذهب الاسماعيلية إلى أن لكل شيء ظاهر محسوس وأوّل باطنياً
لا يعرفه إلا الراسخون في العلم وهم الأئمة « وهؤلاء الأئمة يودعون
هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخصوص ، بل ذهب
للإسماعيلية إلى أبعد من ذلك فقالوا إن التأويل الباطن من
عند الله خص به علي بن أبي طالب ، فكما أن الرسول صلى الله
عليه وسلم خص بالتنزيل فكذلك علي بن أبي طالب فقد خص
بالتأويل « ومن ذلك المشاركة بين النبي وعلي ، فقالوا إذن وجوب
التأويل الباطن وضرورته واستدلوا على ذلك بقصة نبي الله موسى
عليه السلام مع الرجل الصالح المذكورة في سورة النكح

وكيف أن موسى عليه السلام وهو نبي مرسل من أولي العزم لم يمنحه الله علم الباطن بينما منح هذا العلم إلى الرجل الصالح وهو ليس بنبي مرسل وليس من أولي العزم ، وهكذا كان التأويل الباطن إلى علي بن أبي طالب وهذا أورثه الأئمة من أعقابهم بأمر من الله ، وعلى ذلك فالأئمة هم الذين يدلون الناس على أسرار الدين وليس لأحد غيرهم هذا الحق الذي جاءهم بأمر الله تعالى ، ولكن ليس لهم أن يظلموا أحداً على أسرار هذا الدين إلا لمن يستحق ذلك فقط ، ومن ثم ستر الاسماعيلية علوم الباطن إلا عن كبار الدعاة فقط ، وستروا هذه العلوم وما كتبه كبار الدعاة عن العالم كله وظلت محجوبة عن العالم هذه القرون العديدة إلى أن قدر لنا الحصول على بعضها وبذلك استطعنا الحديث عنهم ، وقد نظم الداعي المؤيد في الدين عقيدة التأويل الباطن ووجوبه وضروره ستره إلا لمن كان يستحقه بقوله :

وإن أجزنا ظاهر الكلام	في ذاك أسلناه للخصام
ففي اختلافات القرآن كثرة	من كل قول مع كل زمره
يا قوم سر الملكوت هذا	يجمل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الخضرا	قال : متى لن تستطيع صبرا
وقال موسى : سوف ألقى صابرا	فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا عما	من قصها إن لم تكونوا نوما
لعلكم أن تحسبوها سمرا	إذن أسأتم للنفوس النظرا

ورتب معنى ضمه كلام كمثل نور ضمه ظلام
 باق بقاء الحب في السنايل في معقل من أحرز الماقل
 وإنما باب المعاني مقفل وأكثر الأمام عنها غفل
 مفتاحه أضحي بأيدي خزنه بهم إلهى علمه قد خزنه
 كما يلوذ الخلق طرا بهم خصوا بهذا النور من ربهم
 فنظرية التأويل الباطن نظرية دينية فلسفية تلخص كما قلنا
 في أن الله سبحانه وتعالى جمل كل معاني الدين في المخلوقات التي
 تحيط بالإنسان ، فيجب إذن أن يستدل بما في الطبيعة وبما على
 وجه الأرض على فهم حقيقة الدين ، وجعلوا المخلوقات قسمين :
 قسما ظاهرا للعيان ، وقسما باطنا خفيا ، فالظاهر يدل على الباطن ،
 فجسم الإنسان مثلا ظاهر وباطنه النفس وهكذا ، فما ظهر من
 أمور الدين من العبادة العملية ، وما جاء في ظاهر آيات القرآن
 هي معاني يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة و فرق الشيعة
 الأخرى ، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنا
 لا يعلمه إلا الأئمة وكبار دعاة ، وبالرغم من أنهم قالوا إن التأويل
 من عند الله ، وأنه خص بها على بن أبي طالب والأئمة من نسله
 تراهم مرة أخرى يقولون إن التأويل من خصائص حجة الإمام
 أو داعي دعاة ، وقد رأينا كيف كان كبار الدعاة مختلفين في

آرائهم ، ومن ثم اختلف التأويل الباطن عندهم باختلاف شخصية الداعي الذي إليه التأويل ، وباختلاف موطن الداعي وزمن وجوده ، فإذا قرأنا تأويلات الداعي منصور المين قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب ■ نجد ما تميل إلى الفلو وهي أشبه بما كان يقوله أصحاب فرق الفلاة مثل الخطابية والسلمانية وغيرها وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الاسماعيلية الفاطمية بالمغرب تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب ، ففيها التأليه الصريح للأئمة وفيها طرح الفرائض الدينية ■ فتأويل الصلاة عندهم هو الاتجاه القلبي للإمام ■ وتأويل الصوم هو عدم إفشاء أسرار الدعوة ، وتأويل الحج هو زيارة الإمام ، وهكذا ينتهي بهم التأويل في فارس في هذا الوقت إلى طرح كل أركان الدين ■ بخلاف ما كان عليه الأمر في بلاد المغرب إذ لم يصرحوا بهذه الآراء إلا في كتبهم السرية الخاصة ■ أما التأويل الباطن في العصر الفاطمي في مصر فقد خفف هذا الفلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكاره واستبشاعه أمام الشعب ، فقالوا إن تأويل الصلاة هي دعوة الحق ■ وأن الصيام هو في الباطن عديم الحديث أسوة بما جاء في القرآن الكريم في سورة صريم « إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » وهكذا اضطرت الدعوة والمؤولون في العصر الفاطمي في مصر إلى التظاهر بتخفيف

تأويلاتهم التي كانت قبل هذا العصر ، بل اضطروا إلى تغيير التأويل الذي ظهر في بلاد المغرب قبل استقرارهم في مصر ، فمثلاً في تأويل قوله تعالى « والفجر وليال عشر والشفع والوتر » قال الداعي بالمغرب إن الفجر هو علي بن أبي طالب وكل إمام بعده ، وأن الشفع والوتر هما الحسن والحسين ولدا علي بن أبي طالب ، ولكن الداعي في مصر أوّل هذه الآية إلى أن « الفجر » هو المهدي المنتظر لأنه يظهر بعد انتشار الضلال ، كما أن الفجر يأتي بعد شدة الظلام . فبالرغم من أن تأويل الداعي بالمغرب يتفق في هدفه الأخير مع تأويل الداعي بمصر ، فإن هذا الأخير كان أكثر منه حذراً في التصريح بأن الفجر هو الإمام ، مع أن الإمام في عصره هو مهدي عصره ؛ معنى هذا كله أن التأويل في مصر الفاطمية كان أكثر اعتدالاً مما كان عليه التأويل في غير مصر . وبعد انتقال الدعوة من مصر إلى اليمن وأصبحت تعرف بالدعوة الاسماعيلية الطيبية . عادت التأويلات الباطنة مرة أخرى إلى الغلو . مع أن دعاة اليمن أخذوا أكثر تأويلاتهم عن دعاة مصر ، وبسبب دخول الأئمة في الستر وعدم وجود دولة للطائفة ، عاد الاسماعيلية إلى التقية والسرية بحيث لا يسمع إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل ، وظل الأمر على ذلك إلى الآن عند طائفة البهرة بفرعها الداودي والسلطاني .

أما الاسماعيلية الزارية (الاسماعيلية الشرقية في فارس) فقد
 اعتنقوا العمل بالتأويل الباطن من دون الظاهر، وتركوا الظاهر
 جملة وتفصيلا. والذي يظهر لي من التأويل الباطن في كل أدوار
 الاسماعيلية أنه وضع لخدمة غرض واحد فقط وهو إغداق صفات
 التجديد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الاسماعيلية، بحيث سهل
 علينا أن نؤول على نحو ما كانوا يؤولون، فكل فضيلة وردت
 في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية نؤول على أنها الإمام
 لأنهم قالوا إن القرآن الكريم نفسه تأويله الإمام، والأهلة
 هم الأئمة، والشمس الإمام، والقمر الإمام، والسماء هي الدعوة،
 والعرش الدعوة، والأرض الدعوة، والجبال هم الدعاة، والملائكة
 هم الدعاة، والطاغوت والأصنام والشياطين هم أعداء الأئمة،
 وهكذا كان تأويلهم الباطن مما يجعلنا نستطيع أن نسايرهم في
 تأويلهم ونقيس على ما قالوه.

ولكن تأويلهم الباطن لقصص الأنبياء لا يمكن أن يقول
 بها إلا من قرأها في كتبهم ولا يمكن أن يقيس على ما قالوه، فهم
 يذهبون إلى أن التفسيرات التي ذكرها المفسرون جعلوا الأنبياء
 مذنبين خاطئين بينما الأنبياء معصومون عن كل نقيصة وهي عصمة
 ذاتية، كذلك يستنكر الاسماعيلية تفسير المفسرين، فمثلا ما قاله
 المفسرون عن قصة آدم وخروجه من الجنة بسبب ثمرة أكلها
 لم يقبله الاسماعيلية، فقد قال أحد دعاةهم في الرد على قول هؤلاء

المفسرين : « جاء في التفسير أن الله أسكن آدم الجنة وأباح له ثمراتها غير الشجرة المستثناة منها ، قالوا هي الحنطة » والحنطة من حيز الزروع لا من جملة الأشجار ، وقالوا هي التين أيضاً » وهذا الكلام خارج عن المعتاد أن يكون صفوة الله سبحانه الذي يعطيه ويسجد له ملائكته ويسبح له جنته يشع عليه بنبتة من نباتها أو من شجرة من شجراتها ، فلن تراه كان يدخرها لأعز منه إنساناً وأعلى من رتبته ورتبة ومن مكانه مكاناً ، وبخل المرء بالشئ يقتضيه حاجة إلى الاستئثار به أو إعداده إياه لمن يكرم عليه ، ولا حاجة بالله إلى طعامه يطعمه فيكون قد ادخر ذلك لنفسه » وإن كان جميع ذلك ممتنعاً من الله سبحانه مستحيلاً ، وواجب أن يطلب العاقل سبيلاً ينفي عن الله سبحانه في هذه المضائق ذمهم التهم ، وعن صفوة آدم منعمة الشره المفرط والنهم » . أما ما قاله علماء الاسماعيلية في تأويلهم الباطن فهو أن آدم لم يكن أول الخلق كما تقول جميع الأديان السماوية ، إنما كان قبله عالم عاش بينهم آدم ، وأن آدم هذا كان له حجة هو الذي رضى إليه في القرآن الكريم بحواء « أى أن حواء عندهم لم تكن أنثى وليست بزوجة آدم ، إنما كانت أقرب النعاة إلى آدم ، وأن آدم وحواء كانا ينعمان في دعوة الإمام الذي كان قبل آدم وهي دعوة إسماعيلية وهي التي عبر عنها الله بالجنة » فتطلع آدم إلى مرتبة دينية أعلا من مرتبته ، فأخرجه الإمام من الدعوة ،

ولكن آدم عاد إليها بعد أن تاب الإمام عليه ؛ هذا هو ملخص تأويل قصة آدم عند بعض دعاة الاسماعيلية . وقد ذكرنا من قبل اختلاف الدعاة في التأويل ، فهناك تأويلات أخرى لا حاجة إلى ذكرها هنا ، وكذلك قولهم في تفسير ما جاء عن إبراهيم الخليل عليه السلام في القرآن الكريم « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً » قال هذا ربي . فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكون من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برى مما تشركون « فالكواكب هم الدعاة الذين أخذ عنهم إبراهيم علوم الدعوة الاسماعيلية حتى انتهى ما عندهم فاتجه إلى الأخذ عن حجة النبي الذي كان قبله ، فلما أتى على جميع ما عنده من العلوم طلب العلم عن النبي نفسه حتى هبأه النبي إلى أن يحل محله بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . وعلى هذا النحو يسير التأويل الباطن الذي يخالف ما عليه جمهور المفسرين والمطالع . وإذا بحثنا عن السبب الذي من أجله اتجهوا في تأويل قصص الأنبياء إلى هذا الاتجاه ، نجد أن من عقائدهم ما أطلقوا عليه « نظرية الدور » وتتلخص هذه النظرية في أن الحياة تتجدد وهي مقسمة إلى فترات ست وعلى رأس كل فترة نبي . وبين كل نبي وآخر أمة يخلفون النبي في شئون دينهم ، وأن ما يحدث في فترة من هذه الفترات يحدث ما يشبهه تماماً في

الفترات الأخرى « ويرى في ذلك الحديث النبوي » تسلسل سبل من سبقكم حذو القذة بالقذة والتعل بالتعل حتى لو دخلوا خصرم صب لدخلتموه » فما حدث في عصر آدم عليه السلام هو نفس ما حدث في عصر إبراهيم وفي عصر نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك كانت صفات هؤلاء الأنبياء واحدة بحيث تستطيع أن تقول مثلاً إن موسى هو آدم عصره وهو نوح عصره وعيسى عصره . . الخ ، وأن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء في مرتبة واحدة أيضاً وصفات واحدة « ونتيجة ذلك أن إمام العصر وهو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة فهو صاحب كل صفات الأنبياء والأئمة السابقين « ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلي في الدور القاطمي بأنه خليل الله وكليم الله وأنه المسيح الذي يحيي الموتى إلى غير ذلك من خصائص الأنبياء ، وبناء على ذلك نستطيع أن نفهم قول شعرائهم يخاطب إمامه صاحب القاهرة :

سلام على العترة الطاهرة	وأهلاً بأنوارها الزاهرة
سلام بدياً على آدم	أبي الخلق باديهِ والحاضرهِ
سلام على من بطوفانه	أديرت على من بنى النارهِ
سلام على من أناء السلام	غداة أحفت به النارهِ
سلام على قاهر بالمصا	عصاة فراعنة جائرة
سلام على الروح عيسى الذي	بمبعثهِ شرفت ناصرهِ

سلام على المصطفى أحمد ولى الشفاعة فى الآخرة
 سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأنجم الزاهرة
 سلام عليك فحصولهم لديك أيا صاحب القاهرة
 ويقوم شاعر آخر فى مدح إمامه :

يا مسيحاً يكلم الناس طفلاً ضل فى شأنه أخو اللب لباً
 لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسميك ربا

فمكذا كان رأيهم فى قصص الأنبياء فقد أولوا ما ورد فى القرآن الكريم عن الأنبياء تأويلاً يتفق مع هدفهم فى إسباغ فضائل خاصة على الأئمة ، بل ترى فى كثير من كتبهم السرية أن الإمام قائم الزمان من الأنبياء أولى العزم ولكننا وقد عرفنا شيئاً عن عقيدة الاسماعيلية فى الإمامة ، وما يهدف إليه علم الباطن ، وجب أن نفرق بين نوعين من الإمامة عندهم ، فهناك إمام « مستودع » و « إمام مستقر » ، ولتقريب الفرق بينهما إلى الأذهان ، نفرض أن أحد الأئمة توفى وكان ولى عهده طفلاً صغيراً أو فى سن لا يستطيع معه أن يباشر سلطته الدينية والزمنية ، عندئذ يختار أقرب أقاربه إليه ليتولى السلطان ويلقب بالإمام المستودع بدلاً من الإمام الحقيق الصغير حتى يشب هذا ويتسلم ميراثه منه فيصبع صاحب مرتبتي « الاستيداع والاستقرار » والإمام المستودع لا يتمتع بسلطان روحى ، وليس له أن ينقل

مرتبة الإمامة إلى أحد أبنائه ، بل يحتفظ بمرتبة الإمامة لصاحبها الشرعى وبحكم باسم الإمام الشرعى ، وهو مع ذلك كله معصوم عصمة مكتسبة من مرتبته « أما الإمام المستقر فهو صاحب النص الشرعى وصاحب السلطان الدينى وعصمته ذاتية ، وهو صاحب الصفات التى سبق الحديث عنها . وعندما كان الأئمة فى دور الستر ، اتخذوا أئمة مستودعين تعمية لأعدائهم وسترا على صاحب الحق الشرعى فى الإمامة ، وربما كان كثرة الأئمة المستودعين فى دور الستر من أسباب عدم الوصول إلى معرفة حقيقة نسب الفاطميين ، وسبب هذا الاضطراب بين المؤرخين فى أسماء الأئمة حتى وقتنا هذا حتى إن الأستاذ برنارد لويس الأستاذ بجامعة لندن يذهب إلى أن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية بالمغرب كان إماماً مستودعاً وأن القائم بأمر الله الذى وليه فى الحكم هو الإمام المستقر وعلى ذلك فالقائم ليس ابن المهدي ، ولكن هذه كلها افتراضات لا يمكن أن نصل فيها إلى نتيجة حاسمة .

ويذهب أكثر الذين تحدثوا عن عقائد الاسماعيلية من القدماء والمحدثين بأن الاسماعيلية يقولون بالتناسخ ، أى بانتقال الروح بعد الموت إلى إنسان آخر أو إلى حيوان أو نبات على نحو ما نراه فى العقيدة البوذية مثلاً ، ولكن بعد أن وصلتنا كتب الدعوة الاسماعيلية السرية نقول إن الاسماعيلية لا يدينون بالتناسخ بل ذهبوا إلى أن الإنسان بعد موته يستحيل عنصره الترابي

(جسمه) إلى ما يجانبه من تراب ، وينتقل عنصره الروحاني
 (الروح) إلى الملائ الأعلى ، فإن كان الإنسان في حياته مؤمناً
 بالإمام فهي تحشر في زمرة الصالحين وتصبح ملكاً مدبراً ، وإن
 كان شريكاً عاصياً لإمامه حشرت مع الأبالسة والشياطين وهم
 أعداء الإمام ، وهذا هو عندهم تأويل الثواب والعقاب ، فالجنة
 عندهم هي طاعة الإمام والنار هي الخروج عن طاعة الإمام .
 وكثيراً ما أرى في كتبهم اصطلاح « المسخ » بمعنى أنه خرج
 عن الدعوة الاسماعيلية بعد أن كان من أبنائها . بينما المصطلح
 الفلسفي للمسخ هو انتقال الروح إلى حيوان .

كذلك ذهب القدماء إلى القول بأن الاسماعيلية دانوا بالحللول
 بمعنى حلول اللاهوت في الأئمة . والحقيقة أن الاسماعيلية لم يذهبوا
 إلى هذه العقيدة بصريح العبارة ، إنما لجأوا إلى القول بأن الإمام
 خلق من نور الله أو أن نور الله حل به . وقد انتشرت فكرة
 الحللول بين الاسماعيليين في فارس في دور الستر ثم خفت بعض
 الشيء في الدور الفاطمي ثم عادت إلى الظهور بوضوح وصراحة
 في دور الاسماعيليين النزارية . أما عند البهرة فهي موجودة في شيء
 من النعوض أو قل في شيء من التلاعب اللفظي مثل ما كانت
 في الدور الفاطمي ، ونحن نعلم أن طائفة الدروز كانوا من الاسماعيليين
 ثم انشقوا عنهم بسبب تصريحهم بأن الإله حل في الحاكم

بأمر الله فأصبح هو المعبود ، كما قالوا بالتناسخ وغيره من الآراء
التي أبعدتهم عن معتقدات الاسماعيلية .

ويطلق القدماء اسم « السبعية » على الاسماعيلية للقول بأن
العالم بنى على أصول سباعية ، وقد رد الداعي المؤيد في الدين على
ذلك في كتاب « المجالس المؤيدية » بقوله : « فأما موضوع اسم
الرفض والتسبيع من جهتهم عليكم فهو ظلم ، . . وأما التسبيع
فهو نعم أصل من جملة أصول كثيرة تركوا وسمك بها واقتصروا
على واحد من جملتها وذلك أن الديانة مبناهما توحيد الواحد الأحد
الصمد سبحانه ، والطريق إلى معرفة التوحيد معرفة ازدواج
الأشياء ، قال الله تعالى « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها » .
وقال رسول الله (ص) « خلق الله الأشياء مزدوجة ليكون
دلالة على وحدانيته » . وهذا أصل تاه فيه الثنوية ، والثلاثة أصل
تاه فيه النصارى ، والأربعة التي هي مقابل الأركان الأربعة أصل ،
والخمس التي هي بمقابلة الحواس الخمس أصل ، والسته التي هي
بمقابلة الأيام الستة فيها خلق الله السموات والأرض أصل ،
والسبعة أصل ، والثمانية التي هي بمقابلة أبواب الجنة الثمانية وحلة
للعرش أصل ، والتسعة التي هي بمقابلة الآيات التسع أصل ،
والعشرة التي هي بمقابلة ليال عشر وغير ذلك أصل ، وأحد عشر
التي هي بمقابلة تكبيرات الصلاة كل ركعتين أصل ، واثنى عشرة
التي هي بمقابلة اثني عشر قمياً أصل ، وضيع عشر التي هي بمقابلة

الصلاة أصل ، وتسعة عشر التي هي بمقابلة خزانة النار أصل ،
 والأصول غير ذلك كثيرة ، فلا وجه للتخصيص بالسبعة . هكذا
 رد الداعي الاسماعيلي على من رماهم بالتسيع ، والحقيقة أن
 الاسماعيلية أخذوا ما قاله الفلاسفة الفيشاغوريون القدماء الذين
 جعلوا كل الأعداد أصولاً لعقيدتهم ، وصنفوا آراء الفيشاغوريين
 بالصيغة الإسلامية على حسب العقيدة الاسماعيلية ، ومن ثم ظهرت
 عندهم عقائدهم في الأعداد وما يقابلها من أصول دينية دون أن
 يقفوا على عدد بعينه ، فالواحد هو العقل الكلي أو القلم ، والاثنان
 هما العقل الكلي والنفس الكلية أي القلم والروح ، والثلاثة هم
 محمد وعلي وفاطمة ، والخمسة هم القلم واللوح وميكائيل وإسرافيل
 وجبريل ، وهم محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين ، وهم الإمام
 والحجة والداعي والمأذون والمكاسر . وهكذا جعلوا لكل عدد
 ما يقابله من الدين . وكانوا متأثرين في ذلك بالفلسفة الفيشاغورية .
 والذين يدرسون عقائد الاسماعيلية يستطيعون أن يدركوا أن هذه
 العقائد مزيج عجيب من مجموعة المذاهب والديانات والآراء الفلسفية
 القديمة التي عرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد .
 بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات المختلفة والآراء
 المتباينة . وأن الاسماعيلية أخذوا هذه الآراء والمعتقدات
 وأخضعوها لفكرتهم عن الإمامة بعد أن صنفوها بالصيغة
 الإسلامية ، حتى إن الباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد

الاسماعيلية ويردها إلى أصولها القديمة ، فثلا قال قدماء المصريين
بانتقال رُوح فرعون بعد موته إلى العالم العلوى فتصبح من الآلهة
المؤثرة في العالم وبهذه المقالة ذهب الاسماعيلية بأن روح الإمام
تصبح بعد وفاته ملكاً أو عقلاً من العقول الروحانية المدبرة لعالم
الكون الفساد ، وأخذ الاسماعيلية عن أفلاطون نظرية المثل التي
تقول بأن ما في العالم الحسى أشباح لمثل في العالم العلوى فقال
الاسماعيلية إن ما في عالم الدين مُثل لمثولات في العالم الروحاني «
وأخذ الاسماعيلية رأى الأفلاطونية الحديثة في الابداع وظهور
النفس الكلية عن العقل السكلى ، وأن العالم خلق بواسطة
اللوجوس (الكلمة) فجاء الاسماعيلية وقالوا إن الكلمة التي
خلق عنها العالم هى كلمة « كن » التي وردت في الآية القرآنية
« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وأن كلمة كن
مكونة من الكاف والنون « فالكاف رمز على القلم أو العقل
السكلى « والنون رمز على اللوح أى النفس الكلية ، وبهذا فسر
الاسماعيلية قوله تعالى « نون والقلم » أن الله يقسم بأعز مخلوقين
عنده وهما اللوح والقلم ، وفيها يقول الشاعر :

بديع شكر ووسيع خد	لبدع الكاف الرفيع المجد
أكله سبحانه إذ أبدعه	مبتدئاً واخترع النون معه
ثم أقام منهما ما قد علا	خلفة وما لتقل سقلا
من فلك طول الزمان دائر	ومن شهاب ظالم وغائر

والأرض لما أصبحت مهادا ومن جبال رسخت أوتادا
 وحيوان باختلاف الجنس كاملة فيها أداء الحس
 ومن أناس سخروها عتوه إذا أصبحوا منها العمرى الصفوه
 بالسن عن أنفس مترجه كاشفة عن عشواء كل مظله
 واقتبسوا من الأفلاطونية الحديثة كل فلسفة القبوضات
 وترتيبها بحيث إذا قرأنا كتب الحقيقة الاسماعيلية نجد أنفسنا أمام
 الفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

ولعل أكثر الآراء أثراً في الاسماعيلية هذه الآراء التي في
 كتب الآباء المسيحيين ، ففي كتب الاسماعيلية التي ألفت قبل
 دور الاسماعيلية الفاطمية في مصر « أى في الدور الغربي آراء هي
 من صميم العقيدة المسيحية ، بل صرح جعفر بن منصور اليميني في
 كتابيه « أسرار النطقاء » و « سرائر النطقاء » بأن ترتيب الدعاة
 هو نفس ترتيب رجال الكنيسة المسيحية ، واعتراف دعاة
 الاسماعيلية بصلب المسيح هو تأثير قوي من تعاليم المسيحية ،
 ونحن نعلم أن القديس أوجستين كان من أوائل الذين أولوا
 الكتاب المقدس تأويلاً باطنياً ، فجاء الاسماعيلية وأولوا الكتب
 المقدسة بما فيها القرآن الكريم . وفي الدور الفاطمي عصر نجد
 الداعي أحمد حميد الدين السكرماني مثلاً يستشهد بآيات من التوراة
 والإنجيل ويؤولها تأويلاً يتفق مع عقيدته في الإمامة ، بل يجعل
 آيات التوراة تشير إلى إمامه . كل ذلك بتأثير المسيحية على العقيدة

الاسماعيلية تأثيراً جمل مسيحي مصر يقولون إن المزلدين الله
اعتنق المسيحية وهو قول لا أساس له من التاريخ .

فالمقائد الاسماعيلية إذن مجموعة آراء مختلفة تطورت من بلد
إلى آخر ومن زمن إلى زمن بحيث يصعب دراستها ومعرفة ما
فكانوا يقولون بآراء في بلد ويقولون بغيرها في بلد آخر ،
أو يأتون بنقيضها بعد فترة من الزمن ، وقد استفاد الاسماعيلية
من هذا التطور وذلك الاختلاف فإذا جادلت أحدهم في مسألة من
المسائل فهو ينكر نسبة هذه المسألة إلى الاسماعيلية ، فإذا جابهته
بها في كتاب من كتبهم فهو إما ينكر نسبة الكتاب إلى
الاسماعيلية أو أخرج لك كتاباً آخر من كتبهم به ما يناقض
ما في الكتاب الأول ، وأذكر أني كنت أناقش أحد علماء
البهرة في مسألة دقيقة ، وهي قولهم بأن محمد بن اسماعيل بن جعفر
الصادق هو الناطق السابع (أي النبي السابع) فإذا به ينكر
هذا القول إنكاراً تاماً ، فلما ذكرت له أسماء كتبهم التي بها هذا
القول ذهب إلى أن جميع هذه الكتب وقع بها تحريف من النساخ
وأن النسخ الصحيحة من هذه الكتب في خزانة الدعوة بالهند
ثم بعد عدة سنوات قدر لي أن ألتقي به في الهند ، بل في البلد
الذي به خزانة كتب دعوتهم فطلبت منه أن يطلعني على النسخ
الصحيحة التي يحتفظون بها فوعدني ، وانتظرت أن يفي بوعده .

ولكنني عدت من الهند دون أن أقابله مرة أخرى .

(وبعد) فبالرغم من الأبحاث العديدة التي ظهرت بمختلف اللغات في الربع قرن الأخير عن الاسماعيلية فإن هناك عدة نواحى لا تزال غامضة ، ومجال الحديث عن الاسماعيلية ذو سعة لتشعب نواحيها واختلاف آرائها ، ثم إن أكثر كتب الدعاة لا تزال مجهولة أو مستورة في خزائن الطائفة ، فلا تزال دراسة الاسماعيلية تحبو وتحتاج إلى جهود ومثابة حتى تظهر بجلاء ، وتوضح معالم هذه الطائفة التي كان لها أثرها القوي في كل بلد ملكوه ، ونحن في مصر الآن بالرغم من عدم وجود مصري واحد على مذهب الاسماعيلية لا تزال متأثرين بما كان عليه القوم في العصر الفاطمي ، فنحن لا تزال نقدر أهل البيت ، ولا تزال نبنى الأضرحة والقباب لأهل البيت ، ولا تزال نقيم الموالد لهم ، بل الخطب المنبرية هي صورة من التي كانت في العصر الفاطمي .

ولا يزال أوشاب الناس في مصر يهجون بعضهم بعضاً بقولهم « يا عمر » ، وهذا أثر من آثار العصر الفاطمي إذ كانوا يسيبون الصحابة ، ولا يزال الطبقة المتخلفة من المصريين يزعمون أنهم يرون علياً بن أبي طالب يحيمهم وهم في طريقهم إلى الحج ، إلى غير ذلك من معتقدات العوام التي هي من تراث العصر

الفاطمي الاسماعيلي لم يستطع الزمن أن يمحوها من عقول بعض
 المصريين ، فإذا كان سلاطين العصر الأيوبي والعصر المملوكي
 قد أكثروا من إنشاء المدارس لمقاومة الآراء الاسماعيلية
 في مصر ، واتخذوا من العلم سلاحاً لمحاربة هذه الآراء ، فخير بنا
 أن ندرس الآراء الاسماعيلية على حقيقتها من كتبهم حتى يتبين
 لنا حقيقتهم ؟

المراجع الهامة

لما كانت طائفة الاسماعيلية فرقة من الفرق الدينية ، لها عقائدها الخاصة ، كان على الباحث أن يتجه في دراسته عن الاسماعيلية إلى الكتب التي وضعها علماء هذه الطائفة ، وهنا أهم هذه الكتب مرتبة حسب تاريخ المؤلفين . وهي الكتب التي رجعنا إليها ، وقد قسمناها إلى قسمين : القسم الأول وهي كتب الدعوة الغريبة ، والقسم الثاني كتب الدعوة الشرقية .

أولاً : كتب الدعوة الغريبة وكتب ما قبل الانقسام :

١ - «رسالة الرشد والهداية» للداعي ابن حوشب منصور اليمى ، نشرها محمد كامل حسين بمجلة Collectanae العدد الأول سنة ١٩٤٨

٢ - «سراير النطقاء» لجعفر بن منصور اليمى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

٣ - «أسرار النطقاء» لجعفر بن منصور اليمى ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

■ - «كتاب الكشف» لجعفر بن منصور اليمى ، نشره الأستاذ ستروتمان

- ٥ - « كتاب دعائم الإسلام » للقاضي النعمان بن محمد ، نشره الأستاذ آصف علي أصغر فيضي
- ٦ - « كتاب المهعة في آداب أتباع الأئمة » ، للقاضي النعمان ابن محمد ، نشره محمد كامل حسين
- ٧ - « كتاب الاختصار » للقاضي النعمان بن محمد ، نشره محمد وحيد ميرزا
- ٨ - « تأويل دعائم الإسلام » للقاضي النعمان بن محمد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٩ - « كتاب الزينة » لأبي حاتم الرازي ، نشره الدكتور حسين فيض الله الحمداني
- ١٠ - « كشف المحجوب » لأبي يعقوب السجستاني ، نشره الأستاذ هنري كوريان
- ١١ - « إثبات النبوة » لأبي يعقوب السجستاني ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ١٢ - « الينابيع » لأبي يعقوب السجستاني ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ١٣ - « ديوان ابن هاني الأندلسي » ، نشره الدكتور زاهد علي
- ١٤ - « ديوان الأمير تميم بن المعز لدين الله » ، نشره محمد كامل حسين وآخرون

- ١٥ - « سيرة الأستاذ جعفر » لأبي علي منصور الجوزي ، نشره
محمد كامل حسين والدكتور محمد عبد الهادي شعيرة
- ١٦ - ■ استنار الإمام » لأحمد بن إبراهيم النيسابوري ■ نشره
الأستاذ ايشانوف
- ٧١ - « إثبات الإمامة » لأحمد بن إبراهيم النيسابوري ، مخطوط
بمكتبة محمد كامل حسين
- ١٨ - « راحة العقل » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، نشره محمد
كامل حسين والدكتور محمد مصطفى حلمي
- ١٩ - « الرسالة الدرية في معنى التوحيد » لأحمد حميد الدين
الكرمانى ، نشره محمد كامل حسين
- ٢٠ - « رسالة النظم في مقابلة العوالم » لأحمد حميد الدين الكرمانى ،
نشره محمد كامل حسين
- ٢١ - « مجموعة رسائل الكرمانى » لأحمد حميد الدين الكرمانى ،
مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٢٢ - « مجموعة رسائل الدروز » ، مخطوطة بدار الكتب المصرية
- ٢٣ - ■ ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ■ ، نشره محمد
كامل حسين
- ٢٤ - « سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة » ، نشره محمد كامل حسين
- ٢٥ - « المجالس المؤيدية » ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٢٦- « ديوان ناصر خسرو » ، نشر بطهران سنة ١٩٢٩
 ٢٧- « سفرنامه » لناصر خسرو ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .
 ٢٨- « روشانا نامه » لناصر خسرو ، نشر منير بادخشاني بيومباي .
 ٢٩- « خوان الإخوان » لناصر خسرو ، نشر الدكتور يحيى

الخباب

- ٣٠- « كلامي بير » لناصر خسرو ، نشر الأستاذ و . إيفانوف .
 ٣١- « رسالة في الرد على من ينكر العالم الروحاني » لشهریار
 ابن الحسن ، نسخة خطية بمكتبة محمد كامل حسين
 ٣٢- « المجالس المستنصرية » للداعي ثقة الإمام علم الإسلام ،

نشر محمد كامل حسين

- ٣٣- « السجلات المستنصرية » ينسب إلى المستنصر بالله ،
 نشر الدكتور عبد المنعم ماجد
 ٣٤- « الهداية الآمرية » ينسب إلى الإمام الأمر بأحكام الله ،
 نشر الأستاذ آصف علي أصغر فيضي

- ٣٥- « كنز الولد » للداعي إبراهيم بن الحسين الحامدي ،
 مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٣٦- « مجموعة التربية » للداعي محمد بن طاهر الحارثي ،
 مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٣٧- « الأنوار اللطيفة » للداعي محمد بن طاهر الحارثي ،
 مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

- ٣٨ - « تنبيه الناقلين » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٣٩ - « الشموس الزاهرة » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٠ - « زهر بذر الحقائق » للداعي حاتم بن إبراهيم ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤١ - « دماغ الباطل » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٢ - « الذخيرة » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٣ - « تاج العقائد » للداعي علي بن محمد بن الوليد ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٤ - « سمط الحقائق » للداعي علي بن حنظلة ، نشره الأستاذ عباس المزاولي المحامي ببغداد
- ٤٥ - « عيون الأخبار » للداعي عماد الدين إدريس ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٦ - « زهر الماني » للداعي عماد الدين إدريس ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين
- ٤٧ - « الأرهار » للداعي حسن بن نوح ، مخطوط بمكتبة محمد كامل حسين

ثانياً : كتب الدعوة الشرقية وهي كتب باللغة الفارسية
ترجم بعضها إلى الإنجليزية :

- 1— True Meaning of Religious (Risala der Haqiqat I Din) by Shihabu'd din Shah. Translated and edited by Prof. W. Ivanow.
- 2— The Truth worshippers of Kurdistan, Ahli Haqq. Texts ed. and trans. by W. Ivanow.
- 3— Pandiyat-i Jawanmardi. ed. and Trans. by W. Ivanow

ثالثاً : أبحاث وكتب عن الاسماعيلية :

- ١ — « نظرية الثل والمثول وأثرها في الشعر الفاطمي » ، محمد كامل حسين
- ٢ — « في أدب مصر الفاطمية » ، محمد كامل حسين
- ٣ — « أثر التشيع في الشعر المصري بعد الدولة الفاطمية » ، محمد كامل حسين
- ٤ — « بين التشيع وأدب الصوفية بمصر في عصر الأيوبيين والمماليك » ، محمد كامل حسين
- ٥ — « الفاطميون في مصر » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن
- ٦ — « عبيد الله المهدي » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور شرف

٧ — « المعز لدين الله » ، للدكتور حسن إبراهيم حسن والدكتور شرف

٥ — « خمس رسائل إسماعيلية » ، للأستاذ عارف ناصر

٦ — « منتخبات إسماعيلية » ، للدكتور عادل العوا

- 1— The Rise of the Fatimids by W. Ivanow
- 2— A Guide to Ismaili Literature W. Ivanow
- 3— A creed of the Fatimids by W. Ivanow
- 4— Studies in Early Persian Ismailism by W. Ivanow
- 5— The alleged Founder of Ismailism by W. Ivanow
- 6— Nasiri Khusrow and Ismailism by W. Ivanow
- 7— Fragments relatifs à la Doctrine des Ismailis by S. Guyard.
- 8— Essai sur l'Histoire des Ismaéliens de la Perse by M. C. Defrémery.
- 9— Mémoire sur les Carmathes des Bahrain et les Fatimides by M. J. DeGoeje.
- 10— The Origins of Ismailism by B. Lewis.
- 11— Esquisse d'une bibliographie Carmathe by L. Massignon.
- 12— Histoire de l'ordre des Assassins by Von Hammer. Trad. par Hellet.
- 13— The Order of Assassins by Marshall G. S. Hodgson.

رابعاً : الكتب التاريخية العامة ، وكتب الطبقات والفرق ، وهي كتب معروفة للباحثين .

المكتبة التاريخية

تظهر منها :

- ١ - المجلد في تاريخ الأندلس :
للمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادي
- ٢ - الإسلام في إسبانيا :
للدكتور لطفى عبد البديع
- ٣ - التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر :
للأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال
- ٤ - طائفة الإسماعيلية . تاريخها ونظمها وعقائدها :
للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين

يظهر قريبا :

- ١ - الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان :
للدكتور جلال يحيى
- ٢ - تاريخ السلاجقة :
للدكتور عبد النعيم حسنين .

٣ - تطور المسألة المصرية :

للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

٤ - دراسات في التاريخ البطلمي :

للأستاذ الدكتور إبراهيم نصحي

٥ - المغول في التاريخ :

للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد

٦ - تاريخ إمبراطورية الروم تأليف شارل ديل

ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي شميرة

٧ - موجز تاريخ الاشتراكية : تألف نورمان ماكزى

ترجمة الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وزميليه .

٨ - داود باشا آخر المماليك :

للأستاذ عبد العزيز سليمان نوار

٩ - عمان وشرق أفريقيا في عهد البوسعيد :

للأستاذ جمال زكريا قاسم

١٠ - مصر كما صورها هيرودوت :

تمحيق الأستاذ الدكتور أحمد بدوى والدكتور

صقر خفاجة .

١١ - غرب أفريقيا بين العروبة والاستعمار :

للأستاذ الشاطر بصلي عبد الجليل .

- ١٢ - الجبرتي وعصره :
للأستاذ عبد القادر طلبات
- ١٣ - مدخل للحضارة الإسلامية :
للدكتور محمد الملائي
- ١٤ - ثورة إفريقية :
للدكتور محمد أنيس
- ١٥ - القاهرة والحياة الاجتماعية فيها في عصر الأتراك العثمانيين :
للأستاذ حسن عبد الوهاب .
- ١٦ - قناة السويس :
للدكتور عبد العزيز الشناوي
- ١٧ - الإقطاع في أوروبا : تأليف جيزنهوف
ترجمة الدكتور حسن حبشي
- ١٨ - فتح العرب فارس :
للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف
- ١٩ - سيف الدولة الحمداني :
للأستاذ مصطفى الشكعة
- ٢٠ - نظم الحكم عند اليونان والرومان :
للدكتور لطفي عبد الوهاب
- ٢١ - صور من الحياة في مصر في عصر الرومان :
للدكتور عبد اللطيف أحمد علي

٢٢ - قصة التصوير في الإسلام :

للدكتور جمال محرز

٢٣ - التاريخ . فلسفته وأهدافه :

للأستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان

٢٤ - أوغندا بين الاستعمار البريطاني والكفاح الوطني :

للأستاذ محمد عبد المنعم محمود

٢٥ - مائيتي :

للأستاذ محمود الخفيف